الفصل الرابع

مُثل وأخلاقيات

- قيمة الأخلاق
- شرح الديوان

قيمة الأخلاق

لو سُئل أكبر فلاسفة الدنيا أن يوجز علاج الإنسانية كله فى حرفين لما زاد على القول: إنه ثبات الأخلاق، ولو اجتمع كل علماء أوربا ليدرسوا المدنية الأوربية ويحصروا ما يعوزها فى كلمتين لقالوا: ثبات الأخلاق.

فليس ينتظر العالم فلاسفة ولا علماء ولا مبدعين يبدعون له بِدعا جديدة، وإنما هو يترقب من يفسر له الإسلام تفسيرا صحيحا، ويثبت للدنيا أن كل العبادات الإسلامية ما هى إلا وسائل عملية لتثبيت الأخلاق فى نفوس البشر..

إن الإسلام يوجب على كل مسلم أن يكون إنسان الدرجة التى انتهى إليها الكون فى سموه وكماله، وفى تقلبه على منازله بعد أن صُفِّى فى شريعة بعد شريعة وتجربة بعد تجربة وعلم بعد علم.

إن الإسلام يقرر ثبات الخُلق ويوجبه وينشئ النفس عليه ويجعله فى حياطة المجتمع وحراسته لأن هناك حدودا فى الإنسانية تتميز بحدود فى الحياة، ولابد من الضبط فى هذه وهذه، حتى لا يكون وضعا إلا وراءه تقدير ولا تقديرا إلا معه حكمة ولا حكمة إلا فيها مصلحة..

الأخلاق هى الطريقة التى تنظم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أى من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه.

وحين يقع الفساد فى المجتمع تنمحى آداب الناس ويلتوى ما كان مستقيما وتشتبه العالية والسافلة وتُطرح المبالاة بالضمير الاجتماعى،

ويقــوم وزن الحكم فــى اجتماعهم على القبيح والمنكــر، وتجرى العبرة فيما يعتبرونه بالرذائل والمحرمات، ولا يُعجب الناس إلا بما يفسدهم، فهناك إمســاك للخُلق السليم على فرد ولابد من تحول الفرد فى حقيقته إذ كان لا يجــىء أبــدا إلا متصدعا فى كل مظاهــره الاجتماعية فأينما وقع فى أعمال الناس جاء مكســورا أو مثلوما.. وما شــذ من هذه القاعدة إلا الأنبيــاء وأفراد من الحكماء فهم قــوة التحويل.. يُبعث أحدهم ليبدأ به مسار التغيير فى التاريخ ليتطرق الناس بهم إلى طرق جديدة.. وهكذا الحكماء الناضجون فى هذه الإنسانية أمكنة بشرية محصنة لحفظ كنوزها وإحرازها فى أنفسهم، فلهم فى ذات أنفسهم عصمة ومنعة كالجبال فى ذات الأرض.

وهكذا عاش الشــافعى.. حاز العلم بــين عضديه ثم جال فى النفوس البشرية سائحا باحثا عن الفضيلة لينشرها فى الآفاق.. وابتعثه الله على رأس مائــة عام ليصلح ما أفســدته الطبائع البشــرية.. فصار مبعوثا من العناية الإلهية لحماية البشــرية من الضياع بعد انتكاسة الأرواح بسبب الشهوات المتبعة والانحرافات المتتابعة والجرائم الإنسانية غير المحدودة والتــى يســطرها التاريــخ فى صفحاتــه ولا يمحوها الزمــن ولا تزيلها أيدى السنين.

* * *

شرح الديوان

الرضا بقضاء الله وقدره والصبر على المكاره

دع الأيـــام تفعـــل مـــا تشـــاء وطِبْ[1] نفسا إذا حكـم القضـــاء
ولا تجـــزع[2] لحـــادثة الليـــالى[3] فمـــا لحـــوادث الدنيـــا بقـــاء
وكن رجلا على الأهوال[4] جلدا [5] وشيمتـك[6] السماحـــة والوفـاء

شرح الأبيات

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[7].

ويقـول ﷺ «عجبـا لأمر المؤمن إن أمره كلـه خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له» [رواه مسلم].

ويقول ﷺ: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفســه وولده وماله حتى

(١) طِـب: مـن طاب يطيب: لذ وحلا وحسـن وجـاد. ويقال: طابت النفـس بكذا: أى انشرحت.

(٢) الجزع: ضد الصبر.

(٣) حادثة الليالى: مصائبها ومنها أحداث الدهر: مصائبه ونوائبه.

(٤) الأهـوال: جمع هول من هال يهول هـولاً، ومنه هال الأمرُ فلانا أفزعه. والأهوال هنا: المخاوف والمصائب.

(٥) جلْدا: شديدا قويا، من جلَدَ.

(٦) شِيمتك: خُلُقك، والشيمة: الخُلق.

(٧) سورة الزمر الآية ١٠.

يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة». [رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح].

والصبر من الأخلاق التى يجب أن يتحلى بها المؤمن، فبهذا الخُلق تؤدى العبادات وتُنجز الأعمال ويتميز الصابر عن غيره سلوكا وعملا ويُكتب له الفوز فى الدنيا والآخرة.

ويكفى الصبر شرفا أن يكون اسما من أسماء الله تعالى، فمن أسمائه جل جلاله «الصبور»- هكذا بصيغة المبالغة- فما أكثر صبر الله تعالى على عباده فهو الذى خلقهم، وهو الذى رزقهم، وهو الذى عافاهم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾[1].

وبعد هذا يعصيه الخلق ويتجرأون على معصيته:

عجبتُ لجاهل عاصٍ ... يبارزه بعصيانه
ويسمع صوته الحانى ... يناديه بقرآنه
أنا التواب يا عبدى ... ومن ترجو لإحسانه
فيُعرض من شقاوته ... مطيعا وحى شيطانه
ولو يدرى لعاد إليه ... يسكب ماء أجفانه

والصابر الحق هو الذى لا يستطيل مدة صبره حتى لا يتطرق اليأس إلى قلبه وذلك كما قال تعالى فى سورة آل عمران:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

---

(١) سورة إبراهيم الآية ٣٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٢٠٠.

قــال أحد العارفين: «البلاء يصبر عليه المؤمن والعافية لا يصبر عليها إلا صِدِّيــق» ويقــول الإمام الغــزالى رحمه الله: «إن الجائــع عند غيبة الطعــام أصبر منه إذا حضرت الأطعمة اللذيذة وقدر عليها، ومن العصمة ألاّ يجد، وبذلك قد يكون الحرمان نوعا من العصمة».

إن الإنســان فى هذا الزمان يعيش فى هم كبير حينها يظن أن الدنيا أو حياته هو على وجه الخصوص عبارة عن سلســلة متصلة من المسرات والملــذات والنجاحات، وهو غير مجانــب للصواب حينما يعلم أنها فى حقيقتها ما هى إلا مزيج من السعادة والشقاء وخليط من السراء والضراء، ولو كانت الدنيا كلها سعادة وهناء لكان أولى أن ينعم بها الرسل والأنبياء وهم أكرم الخلق على الله، وصفوته من عباده وأمناؤه على وحيه وسفراؤه إلى خلقــه.. ولكن انظر كيف كانوا أشــد الخلق بــلاء وأعظمهم مجاهدة وأكثرهم صبرا على تحمل المصائب والمشاق والشدائد، وما كانوا كذلك إلاّ لكى يكونوا لنا قدوة لكى نتعلم منهم جميعا – عليهم الصلاة والســلام– الصبر على قضاء الله فى السراء والضراء.

وفى هذا الزمان أصبح الإنســان عجولا ومتسرعا لا يرضى بقضاء الله إذا لم يكن حسب رغبته وهواه، وهذا يدل على ضعف إيمانه.. وقد وعد الله الصابرين بثواب غير محدد ومكافأة لهم على تكبدهم مشــاق الصبر وآلام كظم الغيظ وضبط النفس وقهرها على مواجهة الشدائد، فالصابرون يوفون أجورهم بغير حساب.

وقال حكيم: لا تحمل الأمس فوق ظهرك لأنك لو فعلت فسوف تسير محنِى الظهر وحدك وســط هامات عالية، فالأمــس موت والغد حياة، والموتى لا يعودون.

وقيل: إن فى المصائب ينبوعا للقوة ومصدرا للوحى ولولا ذلك ما كان المصلحون والأنبياء.

وقيل: لا تُدفع نوائب الدهر إلا بعزائم الصبر.

وقال حكيم لولده:

يـا بنى إياك والجزع على مافات والطمع فيما لا يُرجى، فما اشـتد خطب إلا وأعقبه فرج، ولا انسـد باب إلا وسـوف ينفرج، فإن الله عز وجل قد جعل مع العسر يسرين، وجعل فى الصبر خير الدارين، ومازال مع الصبر الظفر والأنس، ومع الجزع الكدر واليأس، فاختر لنفسـك وما يدنيك إلى الله ويقربك واطرح عنها ما يُحزنك ويكربك.

عليـك إذا ضاقـت أمورُك والتوت بصبرٍ فإن الضيق مفـتاحه الصبر
ولا تشكـون إلا إلـى الله وحـده فمـن عنـده تأتـى الفوائد والنصر

لما أحس الإسـكندر بدنو أجله كتب إلى أمه يصبرها على مصابها فيه بمواعـظ ذكرها فى كتابه، ثم قال لها: يا أمه إذا أفقتِ فاصنعى طعاما لذيذا وشرابا سائغا حلوا وأحضرى له كافة الناس ونادِ فيهم ألا يحضره مـن نابته من الدهر نائبة ولا من أصابتـه من الزمان مصيبة ليكون مأتم الإسكندر خلافا عن مآتم العامة، ويكون لك فى ذلك الذكر والصيت.

فلما مات امتثلت لوصيته وتفننت فى صنع الطعام والشراب، ودعت النـاس إليه بما ذكرها بـه، فلم يأتها أحد فقالت: مـا بال الناس مع تقدمنا إليهم تخلفوا عنا؟ فقيل لها: أمرت ألا يحضر الطعام من أصابته مصيبـة، وكل الناس نزلـت بهم المصائب ونابتهـم النوائب، فاتعظت

وقالت: يا إسكندر ما أشبه أواخرك بأوائلك، أردت والله أن تعزيني عن فقدك التعزية الكاملة.

وقال ابن مسعود: «الدنيا كلها غموم، فما كان منها في سرور فهو ربح».

وقال الإمام الجنيد رحمه الله: لستُ أستبشع ما يرِد على من العالم، لأني قد أصّلت أصلا، وهو أن الدنيا دارهم وغم وبلاء وفتنة، وأن العالم كله شر، ومن حكمه أن يتلقاني بكل ما أكره، فإن تلقاني بكل ما أحب فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول.

فتوطين العبد على المحن في دنياه يهون عليه ما يلقاه ويجد السلوان عند فقدان ما يهواه، كما قيل في المعنى:

يُمثِّلُ نو اللب في لبه ... شدائده قبل أن تنزِلا
فإن نزلت بغتة لم تُرْعه[1] ... لما كان في نفسه مُثَّلا
رأى الأمر يُفضِي إلى آخرٍ ... فصيَّر آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامهً ... وينسى مصارع من قد خلا
فإن دهمته صروف الزمان ... ببعض مصائبه أعولا
ولو قدّم الحزم في نفسه ... لعلّمه الصبرَ عند البلا

فمن جعل الصبر معتمده في نوازله، واعتدّه من أعظم عُدده ووسائله فهو مصيبٌ في رأيه مُنجحٌ في سعيه، ومن جزع من المصائب واضطرب عند وقوع النوائب كان عاملا فيما يزيده ضرا ويكسبه وزرا ويفوته أجرا وناهيك به خُسرا.

(١) تُرعه: أي لم تفزعه، والرُّوْع هو شدة الخوف.

إن الأمـور إذا انسـدت مسالكهـا فالصبـر يفتـح منها كل ما ارتجَا
لا تيأسـن وإن طالـت مطالبـة إذا استعنت بصبر أن ترى فرجـا
أخْلِق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القـرع للأبـواب أن يلجـا

أما الرضا فهو التسـليم الكامل والاطمئنـان إلى قضاء الله، وهو مرتبة تعلـو الصـبر وتفوقه.. ففى وصية رسـول الله ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما قال: «إن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل، وإن لم تستطع فاصبر فإن فى الصبر على ما تكرهه خيرا كثيرا».

والسـبيل إلى مقام الرضا علم العبـد أن الله عز وجل عدلٌ فى قضائه غير متهم فيما يحكم، ومخرج الرضا من حُسن الظن بالله تعالى والمعرفة بـأن الله تعالى غير جائر فى حكمه ويسـهل الرضا على العبد إذا عرف عواقب الأمور وأن اختيار الله عز وجل خير من اختياره لنفسـه ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1].

وقـال ﷺ: «مـن رضـى فلـه الرضـا ومـن سـخط فله السـخط» [أخرجه الطبرانى فى الأوسط].

رضيت وقد أرضى إذا كان مسخطى من الأمـر ما فيه رضا مَن له الأمرُ

فإذا قلت: ما وجود الرضا فى القلب؟ فأقول: علم القلب بتوفيق الله عـز وجل وأنه نعمة من الله تعالى حيث أسـعدك وهـداك للبصيرة ومنّ عليك بالرضا فعندئذ يكون للشكر هياج فى القلب يقويك على دوام الرضا عن الله عز وجل. ويحتاج الراضى إلى سبب يثبت به وهو خوف السلب

(١) سورة البينة الآية ٨.

ومعرفة التقصير فى الشكر لله عز وجل عليه فهذان الحالان يزيدان فى قدْر الرضا فى كل أحوال المريدين.

رُوى أن النبى ﷺ سأل طائفة من أصحابه: «من أنتم؟ فقالوا: مؤمنون، فقال: ما علامة إيمانكم؟ فقالوا: نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» [حديث ضعيف].

وقال ﷺ: «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» [إتحاف السادة].

من لوازم الرضا «رضيت بالله تعالى ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيا» أن ترضى عن ربك سبحانه وتعالى، فترضى بأحكامه وترضى بقضائه وقدره، خيره وشره، حلوه ومُره. إن الانتقائية بالإيمان بالقضاء والقدر ليست صحيحة، وهى أن ترضى فحسب عند موافقة القضاء لرغباتك وتتسخط إذا خالف مرادك وميْلك فهذا ليس من شأن العبد.

إن قوما رضوا بربهم فى الرخاء وسخطوا فى البلاء وانقادوا فى النعمة وعاندوا وقت النقمة، ﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾[1].

لقد كان الأعراب يسلمون فإذا وجدوا فى الإسلام رغدا بنزول الغيث ودَرِّ لبن ونبت وعشب، قالوا: هذا دين خير، فانقادوا وحافظوا على دينهم، فإذا وجدوا الأخرى؛ جفاف وقحط وجدب واضمحلال فى الأموال وفناء للمرعى، نكصوا على أعقابهم وتركوا رسالتهم ودينهم..

هذا إذن إسلام الهوى، وإسلام الرغبة للنفس.. أما من يؤمن بالله

(١) سورة الحج الآية ١١.

فيرضى عن الله عز وجل لأنه يريد وجه الله وما عنده تعالى يبتغى من الله فضلا ورضوانا ويسعى للآخرة.

إن الرضا بوابة الديانة الكبرى منها يلج المقربون إلى ربهم، الفرحون بهداه، المنقادون لأمره، المستسلمون لحكمه.

ما المال والأيام ما الدنيا وما ... تلك الكنوز من الجواهر والذهب
ما المجد والقصر المنيف وما المنى ... ما هذه الأكداس من أغلى النشب
لا شيء كل نفيسة مرغوبة ... تفنى ويبقى الله أكرمُ من وهب

حين وزع الرسول ﷺ أموالا قال لأصحابه:

«إنى أعطى أناسا لِما جعل الله فى قلوبهم من الجزع والطمع، وأدعُ أناسا لما جعل الله فى قلوبهم من الإيمان أو الخير منهم: عمرو بن تغلب».

فقال عمرو بن تغلب: كلمة ما أريد أنّ لِي بها الدنيا وما فيها.

هب الدنيا تُساق إليك عفوا ... أليس يصير ذاك إلى زوال
فما ترجو بعيشٍ ليس يبقى ... وشيكا قد تغيره الليالى
وما دنياك إلاّ مثل ظل ... أظلك ثم آذن بارتحال

الإنفاق والسخاء

وإن كثرت عيوبك فى البرايا[1] ... وسرّك أن يكون لها غطاءُ
تستر بالسخاء[2] فكل عيبٍ ... يغطيه كما قيل السخاءُ

---

(١) البرايا: المخلوقات ومفردها برية والأصل بهمزة والفعل برا.

(٢) السخاء: الجود، والسخى: الجوَاد.

ولا تُــرِ للأعــادي[1] قــط ذلا فــإن شمــاتة الأعــدَا بــلاءُ
ولا ترجُ[2] السماحة[3] من بخيلٍ فما فـي النــار للظمــآن مــاءُ

شرح الأبيات

تظهــر الحكمة جلية فى هــذه الأبيات، كما يظهر العلم بنفوس الناس والعلم بمكارم الأخلاق، فقد سافر الشافعى ورحل كثيرا وعاشر خلقا كثيرين فاكتسب حكمة واسعة ودراية بالأمور. والجود بذل المال وأنفعه ما صُرف فــى وجه اســتحقاقه وقد ندب الله تعالى إليــه فقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾[4]. وقيل إن الجود والسخاء والإيثار بمعنى واحد.

وقيل: من أعطى البعض وأمســك البعض فهو صاحب سخاء، ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود، ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار، وأصل الســخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلا إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيا إذا كان لا يستصعب العطاء.

قال بعض الحكماء: أصل المحاســن كلها الكــرم وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام وسخاؤها بما تملك على الخاص والعام، وجميع خصال الخير من فروعه قال ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخيِ فإن الله آخذ بيده

(١) الأعــادى: جمــع عدو وتجمع كذلك على أعداء، والفعل عادى والعدو هو ضد الصديق. ومن يرجو لك الهلاك.

(٢) ترجُ: تأمل.

(٣) الســماحة: الجود والعطاء والصفح والفضــل، من سمح سماحا وسماحة أى جاد وسمح له أعطاه.

(٤) سورة آل عمران الآية ٩٢.

كلما عثر وفاتح له كلما افتقر» أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان.

وعن جابر بن عبد الله قال: «ما سئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال لا» وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة بعيد عن النار، والبخيل بعيد عن الله بعيد عن الناس بعيد عن الجنة قريب من النار، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل»[1].

وقال بعض السلف: منع الموجود سوء ظن بالمعبود وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[2].

قال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فدق عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته فقال: علىّ دين كذا وكذا، فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكيا فقالت له زوجته: هلا تعللت حيث شقّت عليك الإجابة؟ فقال: إنما أبكى لأنى لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى أن يسألنى. وقد قيل فى كرم معن بن زائدة:

يقولون معن لا زكاة لماله ... وكيف يزكى المال من هو باذله
إذا حال حول لم تجب فى دياره ... من المال إلا ذكره وجمائله
تراه إذا ما جئته متهللا ... كأنك تعطيه الذى أنت نائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لم تطعه أنامله
فلو لم يكن فى كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائلهُ

تتقلب الدنيا بأهلها وتغدر بهم قال أنس رضى الله تعالى عنه: «ما من

(١) ذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة وابن الجوزى فى الموضوعات.
(٢) سورة سبأ الآية ٣٩.

يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذى قبله خير منه، سمعت ذلك من نبيكم ﷺ».

وكان معاويـــة رضـــى الله عنه يقول: «معروف زماننـــا منكر زمان قد مضى، ومنكره معروف زمان لم يأت».

وكانت ناقة النبى ﷺ العضباء لا تُسبق، فجاء أعرابى فسبقها، فشق ذلك على الصحابة رضى الله تعالى عنهم، فقال ﷺ: «إن حقا على الله أن لا يرفع شيئا من هذه الدنيا إلا وضعه».

أفٍ للـــدنيـا إذا كانـت كـــذا أنـــا منهـــا فـــى بـــلاء وأذى
إن صفا عيش امرئ فى صبحه جرعتـه ممسـيـا كأس الردى
ولقـــد كنـت إذا مـا قيـل مـن أنعم العـالـم عيشـــا قيـل ذا

وقيل:

رُب يـوم بكيـت منـه فلمـا صـرتُ فى غيره بكيت عليه

وينبغـــى علـــى العبد إذا تقلبت به الدنيا أن يســـتر حاله ويُجمل فى المســـألة؛ يُروى أن عبد الرحمن الداخل كان ببعض مجالســـه فمثل بين يديه رجل من جند قِنســـرين يســـتجديه فقال: يا ابن الخلفاء الراشدين والسادة الأكرمين إليك فررت وبك عُذت من زمن ظلوم ودهر غشوم، قلّ المال وكثر العيال وشـــعث الحال فصير إلى نداك المآل، وأنت ولىُّ الحمد والمجد والمرجو للرِّفد، فأجابـــه عبد الرحمن على الفور: سمعنا مقالتك وقضينا حاجتك وأمرنا بعونك على دهرك، على كُرهنا لسوء مقالك، فلا تعودنَّ ولا ســـواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة والإلحاف

فـى الطلبـة، وإذا ألم بك خطـب أو مر بك أمر فارفعـه إلينا فى رقعة لا تعدوك كيما تسـتر عليك خلتك وتكف شماتة العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك وما لكنا عز وجل بإخلاص الدعاء وصدق النية.

أعطى عبد الرحمن فأحسن العطاء ووعظ فأحسن الوعظ وأرشد السائل إلى ما ينبغى أن يكون عليه عند السـؤال ليصون ماء وجهه، فلا يريقه، وليحفظ على نفسـه عزتها فلا يسـتذلها، وإنه لتواضع جميل أن يقول عبـد الرحمن: ارفع إلينا حاجتك فى رقعة لا تعدوك بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكى عز وجل بإخلاص الدعاء وصدق النية.

ولا ترجُ السماحة مـن بـخيل فـمـا فـى الـنـار للظمآن مـاءُ

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1].

وقال رسـول الله ﷺ: «إياكم والشُـح فإن الشُح أهلك من كان قبلكم» أخرجه أبو داود فى السنن.

وقال ﷺ: «البخل جامع لمسـاوى القلـوب وهو زمام يقاد به إلى كل سوء».

وقالـت أم البنـين أخت عمر بن العزيـز: «إن البخل لو كان قميصا ما لبسته أو كان طريقا ما سلكته».

وهبنـى جمعت المال ثم خزنته وحانت وفاتى هل أُزاد به عمرا
إذا خـزن المـال البخيـل فإنـه سيـورثه غمـا ويعقبـه وزرا

وقيل عن بخيل استهزئ به:

(١) سورة النساء الآية ٣٧.

يا أيهـا الخـارج مـن بيتـه وهاربـا مـن شـدة الخـوف
ضيفـك قـد جـاء بـزادٍ له فارجع وكن ضيفا على الضيف!!

فراجى السماحة والبذل من البخيل كمن يرجو الماء القراح من الحجارة أو- كما قال الشافعى- كمن يرجو الماء الزلال من النار!!

القناعة

ورزقك ليس ينقصه التأنى وليس يزيد فى الرزق العناء[1]
ولا حـزن يـدوم ولا سـرور ولا بـؤس[2] عليك ولا رخـاء
إذا مـا كنـت ذا قلـب قنـوع فأنت ومالـك الدنيـا سـواء

شرح الأبيات:

يقول الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[3].

ويقول الله عز وجل: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[4].

وعـن أبى هريـرة رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «يدخل الجنة أقوامٌ أفئدتهم مثل أفئدة الطير» [رواه مسلم].

قيل: معناه متوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة.

وعن البراء بن عازب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم

---

(١) العناء: التعب والنصَب والفعل عنى والمصدر عناء.

(٢) البـؤس: الحاجـة والفقر والبأس العذاب، وتقول: بؤس ويبأس وبئس الرجل بالكسـر بؤسا وبئيسا اشتدت حاجته.

(٣) سورة الفرقان الآية ٥٨.

(٤) سورة الطلاق الآية ٣.

علـى الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصا وتعود بطانا» أخرجه أحمد فى المسند.

حكـى أنه فى زمان هارون الرشـيد حصل للناس غلاء سـعر وضيق حال حتى اشـتد الكرب على الناس اشتدادا عظيما فأمر الخليفة هارون الرشيد الناس بكثرة الدعاء والبكاء وأمر بكسر آلات الطَرب، وفى بعض الأحيان رؤى عبد يصفق ويرقص ويغنى فحُمِل إلى الخليفة الرشيد فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال إن سيدى عنده خزانة بر وأنا متوكل عليه أن يطعمنى منها فلهذا أنا إذا لا أبالى فأنا أرقص وأفرح فعند ذلك قـال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى فسلّم للناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

ولا تجـزع إذا أعسرت يومـا فقـد أيسرت فى الزمن الطـويل
ولا تظنـن بربـك ظـن سـوء فـإن الله أولـى بالجميـل
وإن العُسـر يتبعـه يسار وقـول الله أصـدق كـل قيـل
فلـو أن العقـول تسوق رزقا لكان المال عنـد ذوى العقـول!

وعلى المرء القناعة فإن القنوع أغنى الناس وأروحهم بالا فالرزق يساق إلى المرء ويتبعه كأجله..

اقنـع بأيسـر رزق أنت نائلـه واحـذر ولا تتعـرض للإرادات
فمـا صفا البحر إلا وهـو منتقص ولا تعكـر إلا فـى الزيـادات

قال رجل لرسـول الله ﷺ: أوصنى، فقـال: «عليك باليأس مما فى أيـدى النـاس وإياك والطمع فإنـه فقر حاضر» [أخرجـه الطبرانى فى الجامع الكبير].

وقيل لأعرابية: من أين معاشكم؟

فقالت: لو لم نعش إلا من حيث نعلم لم نعش.

وقال أعرابى: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك ولا يحقرك معها من فوقك.

إذا كنت تبغى العيش فابغ التوسطا فعند التناهى يقصر المتطاول

* * *

وإن القناعة كنز الغنى فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يرانى على بابه ولا ذا يرانى له منهمك
فصرتُ غنيا بلا درهم أمر على الناس شبه الملك

ويقول آخر:

إذا طاوعت حرصك كنت عبدا لكل دنيئة تدعى إليها

وقال آخر:

وذى حرص تراه يلم وفرا لوارثه ويدفع عن حماه
ككلب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواه

وقال آخر وأجاد:

لا تغضبن على امرئ لك مانع ما فى يديه
واغضب على الطمع الذى استدعاك تطلب ما لديه

وقال آخر:

أيا من عاش فى الدنيا طويلا وأفنى العمر فى قيل وقال
وأتعب نفسه فيما سيفنى وجمّع من حرام أو حلال
هب الدنيا تقاد إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى الزوال؟!

فناء الدنيا

ومن نزلت بساحته المنايا فلا أرض تقيه ولا سماءُ
وأرض الله واسعةٌ ولكن إذا نزل القضا ضاق[1] القضاءُ
دع الأيام تغدر[2] كل حينٍ فما يغنى عن الموتِ الدواءُ

شرح الأبيات:

لما مرض معاوية رضى الله عنه مرضه الذى مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لى فراشا وأسندونى وأوسعوا رأسى دهانا ثم اكحلوا عينى بالإثمد ثم ائذنوا للناس يدخلون ويسلمون علىَّ قياما ولا تجلسوا عندى أحدا ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشأ يقول:

وتجلدى للشامتين أريهمُ أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتُ كل تميمة لا تنفع

ومن وصية على رضى الله عنه لأبى ذر: زر القبورِ تَذْكُر بها الآخرة، ولا تزرها بالليل، وغسِّلْ الموتى يتحرك قلبك، وصلِّ على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين فى ظل الله تعالى.

---

(١) ضاق: فى رواية حُم القضاء.

(٢) ترك الوفاء وهو على وزن فَعَل بفتح العين ومضارعه يفعل.

ونظر فيلسوف إلى ميت يُحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد.

باتـوا على قلل الأجبال تحرسهم غلب الـرجال فما أغنتهـم القللُ
واستنزلوا بعـد عـز مـن معاقلهـم فأودعـوا حفـرا بئـس مـا نزلـوا
ناداهُـم صارخ من بعد مـا قُبـروا أيـن الأسـرة والتيجـان والحـلل
أين الوجـوه التـى كـانت منعمة من دونها تُضرب الأستار والكللُ
فأفصح القبر عنهم حين سـاءلهـم تلك الوجـوه عليهـا الدود يقتتل
قد طالما أكلـوا دهـرا ومـا شربـوا فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلـوا
أضحـت منازلهـم قفرا معطلـة وساكنـوها إلى الأجداث قد رحلوا

فعلـى العبـد أن يتذكر دائما أنه يحمل الموت وأنه يسـعى إلى الموت وأنه ينتظر الموت صباح مسـاء، وما أحسـن الكلمة الرائقة الرائعة التى قالهـا على بن أبى طالب رضى الله عنه: «إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل».

كل شيء بقضاء وقدر والمنايـا عِبرٌ من عبرْ

إن الموت لا يسـتأذن على أحد ولا يحابى أحـدا ولا يجامل أحدا، وليس له إنذار مبكر يخبر به الناس ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[1].

(١) سورة لقمان الآية ٣٤.

إن الإنسان يجبن من المخاوف وينخلع قلبه من مظانّ المنايا وإذا بالمآمن تقتله ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

قيمة التضرع والدعاء

أتهزأ بالدعاء وتزدريه[2] وما تدرى بما صنع الدعاء
سهام الليل لا تخطى ولكن لها أمدٌ[3] وللأمد انقضاء

شرح الأبيات

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾[4]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾[5].

إن لطف الله سارٍ في العالم؛ في عالم الإنسان، في عالم الحيوان، في البر والبحر، في الليل والنهار، في المتحرك والساكن..

صحّ أن سليمان عليه السلام قد أوتي منطق الطير.. خرج يستقي بالناس، وفي طريقه من بيته إلى المصلى رأى نملة قد رفعت رجليها تدعو رب العزة، تدعو الإله الذي يعطي ويمنح ويلطف ويغيث فقال سليمان: أيها الناس عودوا فقد كُفيتم بدعاء غيركم.

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٦٨.

(٢) تزدريه: تحتقره وتستهين به وهو من زَرَى عليه فعلَه: عابه، والمصدر زراية.

(٣) الأمد: الغاية ومنتهى الشيء والجمع آماد ومنه قوله تعالى: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ أي الأجل.

(٤) سورة غافر الآية ٦٠.

(٥) سورة البقرة الآية ١٨٦.

فأخذ الغيث ينهمر بدعاء تلك النملة.. النملة التى فهم سليمان عليه السلام كلامها، وفى كثير من الأحيان يأتى لطف البارى سبحانه وتعالى بسبب هذه العجماوات.

وقد ذكر أبو يعلى فى أثر قدسى إن الله تعالى يقول: «وعزتى وجلالى لولا شيوخ رُكَّع وأطفال رُضع وبهائم رُتَّع لمنعت عنكم قطر السماء».

قيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ وقد قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] فقال: لأن قلوبكم ماتت بعشر خصال.. عرفتم الله ولم تقوموا بحقه، وقرأتم القرآن ولم تعملوا به، قلتم نحب رسول الله ﷺ وتركتم سنته، قلتم نخشى الموت ولم تستعدوا له، قلتم إن الشيطان عدوكم وواطأتموه على المعاصى، قلتم نخاف النار ولم تهربوا منها، قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها، وأكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها، ودفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم، وإذا قمتم من فرشكم رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم فيكف يُستجاب لكم؟

وفى حكم ابن عطاء الله يقول رضى الله عنه: «لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعاً» فإذا أورد الله تعالى عليك حاجة أو أنزل بك نازلة فاعلم أنه لا دافع لها سواه إذ يستحيل أن يرفع غيره ما كان هو له واضعا؛ لثبوت توحيده فى أن لا فاعل سواه، وإذ هو غالب على أمره لا يغالبه أحد، فمن اعتمد على غير الله فهو فى غرور مما لا يدوم ولا يدوم شىء سواه فهو الدائم الباقى

(١) سورة غافر الآية ٦٠.

القديـم الذى لم يزل ولا يزال، وعطاؤه وفضله دائمان فلا تعتمد إلا على من يدوم عليْك منه الفضل والإحسان فى كل نفس وحين وأوان وزمان.

فيا بؤس القانطين من رحمته ويا بؤس من عصاه ولم يراقبه وثبت على محارمه ولم يستحَ منه تعالى!!

ويقول ﷺ: «من لم يسأل الله يغضبِ عليه» [رواه الترمذى].

وقال: «من سـرّه أن يسـتجيب الله له عند الشـدائد والكرب فليكثر الدعاء فى الرخاء» [رواه الترمذى].

وآداب الدعـاء كثـيرة وأكدها تجنب الحرام مأكلا ومشـربا وملبسـا والإخلاص لله وتقديم عمل صالح والوضوء واستقبال القبلة والصلاة والجثو على الركب والثناء على الله والصلاة على نبيه ﷺ أولا وآخرا وبسط يديه ورفعها حذو منكبيه وكشفهما مع التأدب والخشوع والمسكنة والخضوع، وأن يسـأل الله تعالى بأسمائه العظام الحسنى والأدعية المأثورة، ويتوسل إلى الله تعـالى بأنبيائه والصالحين بخفض صوت واعتراف بالذنب ويبدأ بنفسه ولا يخص نفسه إن كان إماما ويسأل بعزم ورغبة وجد واجتهاد، ويحضر قلبه ويحسـن رجاءه ويكـرر الدعاء ويلح فيـه، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم ولا بأمر قد فُرغ منه ولا بمستحيل ولا بتحجير، ويسأل حاجته كلها ويؤمن الداعى والمستمع ويمسح وجهه بيديه بعد فراغه من الدعاء ولا يستعجل أو يقول دعوت فلم يستجب لى.

ومن أهم أوقات إجابة الدعاء كما قال الإمام الشافعى:

سهام الليل لا تخطى ولكن لهـا أمـد وللأمـد انقضاء

ليلة القدر ويوم عرفة وشهر رمضان وليلة الجمعة ويوم الجمعة وساعة

الجمعــة «وهى ما بين أن يجلس الإمــام إلى أن تقضى الصلاة» والأقرب أنهــا عند قراءته الفاتحة حتى يؤمن» وجوف الليل ونصفه الثانى وثلثه الأول وثلثه الآخر ووقت السحر وعند النداء بالصلاة وبين الأذان والإقامة وبعد الحيعلتين للمتحير المكروب وعند الإقامة وعند الصف فى سبيل الله وعند التحام الجيشين فى الحرب ودُبُر الصلوات المكتوبات وفى السجود وعقب قراءة القرآن لا سيما الختم وعند قول الإمام ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾[1]، وعند شرب ماء زمزم وصياح الديكة واجتماع المسلمين وفى مجالس الذكر وعند تغميض الميت وعند نزول الغيث.

وللدعاء أماكن يســتجاب فيها ليس هذا محل ذكرها فيرجع فيها إلى محلها.. والله أعلم.

جهد البلاء

أكثـر الناس فى النساء وقالوا ... إن حب النســاء جَهْدُ[2] البلاءِ
ليس حب النساء جهدا ولكن ... قربُ من لا تحب جَهْدُ البلاءِ

شرح الأبيات

لا يُفهم من هذين البيتين أن الإمام ينفى فتنة النســاء فالرســول ﷺ يقول محذرا أمته: «ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النســاء» [متفق عليه]..

(١) سورة الفاتحة الآية ٧.

(٢) الجَهْــد: بالفتــح والضم الطاقة وقُرىء بهمــا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ والجهد بالفتح: المشقة، ويقال جَهد بالفتح.

لكـن مـدار البيتين إثبات أن حب النسـاء إن كانـت ممن يحل للرجل كزوجة أو أمة ليس جهدَ البلاء، وإنما الجهد حقا أن يُفرض على المرء قرب من لا يحبه ولا يوافقه، فالحب والقرب لا يكون إلا بالموافقة وتجانس الطباع والأخلاق وإلا فإن التنافر أكيد والعداوة تتبعه. لذلك عدّ الفلاسفة الصديق من ضروب المسـتحيل حتى إن بعض الناس يقول: لقد صحبت الناس أربعين سنة فما رأيتهم غفروا لى ذنبا ولا ستروا لى عيبا ولا حفظوا لى غيبا.

لذلك قال الحكيم:

إخـاء النـاس ممتـزج وأكثـر فعلهـم سَمِـجُ
فـإن بدهتـك مقطعـةٌ فمـا لذنوبهـم فـرجُ
فقومهـم بهجـرهـم فإن لم يهجروا اعتوجوا
صـروف الدهـر دانية تقطـع بينهـا المُهـجُ

لهذا جعل الصوفيةُ العزلة ركنا من أركان الطريق فلا تجعل وقتك كله مع الناس فإنهم يقطعونك عن الله.

وقد نُسب إلى إمامنا الشافعى قوله:

لقـاءُ الناسِ ليس يفيد شيئا سوى الهذيان من قيلٍ وقالِ
فابعـد عـن لقـاء الناس إلا لأخذ العلـم أو إصـلاحِ حالِ

فلا تجلس إلا مع أحد رجلين: رجل جلست إليه يعلمك خيرا فتقبل منه، أو رجل تعلمه خيرا فيقبل منك، والثالث اهرب منه!!

وكما أوصى رسول الله أحد أصحابه فقال له: «وليسعك بيتك».

ويقول ابن عطاء السـكندرى فى حكمه: «وما نفع القلب شـىء مثلُ عزلةٍ يدخل بها ميدان فكرة».

«وليس معنى هذا أن يعتزل المرء الدنيا بل يختلط بقدر الضرورة، الضرورة التى تعينه على إقامة الخلافة وتحقيق العبودية الصادقة وإكمال شعائر الدين، وتعمير الدنيا للآخرة، وأداء ما عليه من حقوق وواجبات فإذا ما فرغ منها سارع إلى العزلة ليسبح بقلبه فى عالم الملكوت[1].

حق الأديب ومعادن الناس

أصبحتُ مُطَّرحا[2] فى معشر جهلوا ... حق الأديب فباعوا الرأس بالذَنَب[3]
والناس يجمعهم شملٌ[4] وبينهم ... فى العقل فرْقٌ وفى الآداب والحسَب[5]
كمثل ماء الذهب الإبريز يشركه ... فى لونه الصُفر والتفضيل للذهب
والعود لو لم تطب منه روائحه ... لم يَفْرق الناسُ بين العود والحطبِ

شرح الأبيات

هنا تبدو حكمة إمامنا ودرايته بنفوس الناس وذلك لكثرة سفره وترحاله ومخالطته للكثير من الخلق وفطنته الكبيرة.

وفى الحديث عن النبى ﷺ: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا» [رواه أحمد والطبرانى]، وذكره السيوطى فى الجامع بلفظ آخر وحسنه.

---

(١) الطريق إلى الله: الشيخ الراحل عبد السلام أبو الفضل تحقيق الدكتور أحمد عبد السلام أبو الفضل. دار البشير القاهرة.

(٢) المطرّح: الملقى.

(٣) باعوا الرأس بالذنَب: استغنوا عن الأصول بالفروع، والذنب بفتح النون: الذيل.

(٤) شمْل: رابط أو علاقة.

(٥) الحسب: عود البخور أو الغصن.

و«سافروا تربحوا» ترجمة موجزة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [1]. فمن هاجر وغادر محل إقامته إلى أرض الله الواسعة فإنه سيجد فى الأرض التى هاجر إليها خيرا يرغم به حُساده ومالا وفيرا يقيم أوده وعلما نافعا يقوِّم به خُلقه ويصلح به أمور دينه ودنياه.

والشافعى حين يقول:

أصبحت مطَّرحا فى معشر جهلوا حق الأديب فباعوا الرأس بالذَنب

ربما يقصد أصحاب الحديث حين عاب بعضهم عليه معرفته بالشعر وإنشاده له، والناس دوما يعيبون ما يجهلون خيره فالمرء عدو ما جهل كما أن رضا الناس غاية لا تُدرك ولا تُنال – وعلى العاقل أن يفعل ما يراه حقا وعدلا ولا يحاول أن يُرضِي الناس جميعا لأنه إن حاول ذلك أساء إلى نفسه ولم يُرضِ أحدا.. ومع هذا فسعة الخُلق وبسطة الخاطر نعيم عاجل وسرور حاضر لمن أراد الله به خيرا، وسرعة الانفعال والحدة وثورة الغضب نكد مستمر وعذاب مقيم.

وعلى المرء ألا يركن إلى الدفاع المستمر عن نفسه فإن السب والشتم لن يضراه، يقول الرئيس الأمريكى «إبراهام لينكولن»: أنا لا أقرأ رسائل الشتم التى تُوجَّه إلىَّ ولا أفتح مظروفها فضلا عن الرد عليها لأننى لو اشتغلت بها لما قدمت شيئا لشعبى.

(١) سورة النساء الآية ١٠٠.

﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾[1]، ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾[2]، ﴿ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ﴾[3].

وقال حسان بن ثابت:

ما أبالى أنبَّ بالحَزْن تيسٌ أو لحانى بظهر غيبٍ لئيم

وبعد هذا يخبرنا الشافعى عن حال الناس فهم جماعة مترابطة فى الهيئة لكنهم فى حقيقة الأمر متفاوتون فى العقل والآداب والحسَب والنسب والغنى والفقر والدين والخُلق فمثالهم الذهب الخالص والنحاس لكنّ التفضيل للذهب، وكل قصد الشافعى إبراز قدر الأديب بين عامة الناس الذين هم كالمعدن الأصفر لكنه كالذهب الخالص النقى.

كما أنه كعود البخور طيب الرائحة الذى لولا رائحته الطيبة لم يعرف الناس الفرق بينه وبين عود الحطب!

الحظوظ

تموت الأُسْدُ[4] فى الغابات جوعا ولحم الضأن[5] يُرمى للكلابِ
وذو جهل ينام على حرير وذو علم ينام على التراب

ولهذين البيتين رواية أخرى هى:

---

(١) سورة النساء الآية ٦٣، ٨١، سورة الأنعام الآية ٦٨، سورة السجدة الآية ٣٠.

(٢) سورة الحجر الآية ٨٥.

(٣) سورة الزخرف الآية ٨٩.

(٤) الأُسْدُ: جمع مفردها أسد وتجمع كذلك على أسود، والأرض التى تعيش فيها الأسود تسمى مأسدة والأنثى لبؤة.

(٥) الضأن: الغنم، والفعل ضأن والمصدر ضأنا.

تموت الأُسد فى الغابات جوعا ولحـم الضـأن تأكلـه الكلابُ
وعبد قـد ينـام علـى حريـر وذو نسـب مفـارشـه التـرابُ

* * *

عتبتُ علـى الدنيـا لرفعـة جاهـلٍ وخفضِ لذى علم فقالت خـذ العذرا
بنو الجهل أبنائـى لهـذا رفعتهـم وأهلُ التقـى أبنَـاء ضَرتى الأخرى
أأتـرك أبنـائى يموتـون ضيعـة وأرضـع أبنـاءً لضـرتى الأخرى؟!

شرح الأبيات

لا يُعطـى ذو العلم وطالبه قدره بين الناس إلا إذا داهن وخالط الملوك وتلـون فى آرائه، وفضل العالم لا يُنكر فأقـرب الخلق من الله العلماء، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[1]، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2]، وفـى الحديث: «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم».

وليـس العلم- كما يقـول ابن الجوزى- بمجرد صورتـه هو النافع، بل معنـاه، وإنمـا يُنال معناه من تعلمه للعمل بـه فكلما دله على فضل اجتهـد فيه أو فى نيله وكلمـا نهاه عن نقص بالغ فى تجنبه ومباعدته فحينئذ ينكشـف له مستور العلم ويسـهل عليه طريقه فيصير كمجتذب يحث الجاذب فإذا حركه عجل فى سيره.

والذى لا يعمل بالعلم لا يطلعه العلم على غوره ولا يكشف له عن سره فيكون كمجذوب لجاذب جاذبه.

(١) سورة فاطر الآية ٢٨.

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

والعلم فهم الأصول ومعرفة المعبود وعظمته وما يستحقه والنظر فى سير الرسول ﷺ وصحابته والتأدب بآدابهم وفهم ما نقل عنهم، هذا هو العلم النافع الذى يدع أعظم العلماء أحقر عند نفسه من أجهل الجهال. لكن العالم إذا حقر نفسه أمام نفسه لا ينبغى أن يحقرها أمام العامة فللعلم هيبتُه ومكانته وحُرمته لكنّ الجهال فى زمن الشافعى- وفى زماننا- سادوا الناس بجهلهم وأصبح العالم وطالب العلم لا يلقى ما يستحقه من كرامة ومكانة لأن الجهل فُضِّل على العلم وأصبح الجاهل بالعلوم الشرعية والدنيوية- إذا حاز مالا- يتيه بين الناس وأصبح الحكام لا يعطون لطلاب العلم حقهم فى حياة كريمة- إلا من رحم الله- إلا من داهن وتغافل عن العيوب والمساوئ والأخطاء الشرعية.. وأصبح المال فى يد رؤوس الجُهال وانقلب ميزان العدل فصار الجاهل مكرما لماله وصار العلم وطالب العلم مهانا لفقره.. ولله المشتكى!

ومن خالط الحكام من العلماء خسر دينه وهو مع ذلك فى غير مأمن من عزل أو قتل أو سم، ولا يمكنه أن يعمل إلا بمقتضى أوامرهم وفى ذلك هلاكه.

مظاهر الشيب ومحاسن الأعمال

خبت نار[1] نفسى باشتعال مفارقى[2] وأظلم ليلى إذ أضاء شهابُها

(١) خبت النار: طُفئت.

(٢) المِفرق: وسط الرأس وهو الذى يفرق فيه.

أيا بومة[1] قد عششت فوق هامتى[2] على الرغم منى حين طار غرابُها
رأيت خراب العمر منى فزرتنى ومأواك من كل الديار خرابُها
أأنعم عَيْشا بعد ما حلّ عارضي[3] طلائع شيب ليس يُغنى خضابها؟![4]
إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنغص[5] من أيامه مستطابها
فدع عنك سوءاتِ الأمور[6] فإنها حرامٌ على نفس التقى ارتكابها
وأدِّ زكاة الجاه[7] واعلم بأنها كمثل زكاة المال تم نصابها[8]
وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها
ولا تمشين فى منكب الأرض[9] فاخرا فعما قليل يحتويك ترابها
ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها وسيق إلينا عذْبها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح[10] فى ظهر الفلاة[11] سرابها[12]
وما هى إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب هَمُّهُن اجتذابها

(١) البومة: طائر.
(٢) الهامة: الرأس والجمع هام، وهامة القوم رئيسهم.
(٣) العارض: صفحة خد الإنسان ومنه المثل: خفيف العارضين أى: خفيف شعر عارضيه.
(٤) الخضاب ما يلون به الشعر من حناء ونحوه.
(٥) تنغص: تكدر وساء.
(٦) سوءات الأمور: قبيحها وساقطها.
(٧) الجاه: القدْر والمنزلة.
(٨) النصاب: المقدار الذى تجب فيه الزكاة.
(٩) منكب الأرض: الطريق والجمع: مناكب.
(١٠) لاح: لاح يلوح لوحا بدا وظهر.
(١١) الفلاة: الصحراء الواسعة والجمع فلا وفلوات.
(١٢) السراب: الذى تراه نصف النهار وكأنه ماء فى الصحراء.

فإن تجتنبها كنت سِلْما لأهلها وإن تجتذبها نازعتك كلابها
فطوبى لنفس أولعت[1] قعر دارها مُغلقة الأبواب مُرخىً[2] مجابُها

شرح الأبيات

ينعى الشافعى نفسه فقد رأى الموت ظاهرا له حين ابيضت مفارقه، وقد رأى خراب عمره ويؤكد أن العيش لن يصفو له بعد ما حلَّ بعارضه من الشيب الذى لن يتمكن من إخفائه أى خضاب!!

وتبدو الحكمة ظاهرة فى الأبيات ويظهر فيها النصح لكل البرية، فهو يظهر الدنيا على حقيقتها عارية من الزخارف والزينة.

إذا اصفرّ لون المرء وابيض شعره تنغص من أيامه مستطابها

فحين يبيض الشعر ويصل الإنسان إلى مرحلة الكبر فى السن تتنغض كل أيامه ولا يجد راحته فى أى موضع.

ثم تبدو النصيحة بالعمل الصالح لقرب الأجل ولتحسن الخاتمة.

فدع عنك سوءات الأمور فإنها حرام على نفس التقى ارتكابها
وأد زكاة الجاه واعلم بأنها كمثل زكاة المال تمّ نصابها
وأحسن إلى الأحرار تملك رقابهم فخير تجارات الكرام اكتسابها
ولا تمشين فى منكب الأرض فاخرا فعما قليل يحتويك ترابا

ابتعد أيها الإنسان عن كل الخطايا والمعايب فإن التقوى حاجز بينك وبينها، والتقوى هى الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا

(١) أولعت: أحبت أشد الحُب.
(٢) مُرخى: مغطى مسدول.

بالقليل، وأد حق الجاه وعلو الشرف والمكانة بالدفاع عن المساكين ورعاية حقوقهم فطالما حث الله تعالى على الإحسان: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

وأحسن كذلك إلى الأحرار والشرفاء تملك رقابهم:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهمُ فطالما استعبد الإحسانُ إنسانا

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3] وسوف يحتويك تراب الأرض بعد عزك وغرورك فوقها..

يقول ابن الجوزى: «من عجائب ما أرى من نفسى ومن الخلق كلهم الميل إلى الغفلة عما فى أيدينا مع العلم بقصر العمر وأن زيادة الثواب هناك بقدر العمل هنا، فاحمل نفسك يا قصير العمر على المُر واقمعها إذا أبت ولا تسرح لها فى الطَول فما أنت إلا فى مرعى».

ثم يبدأ فى التعريف بحال الدنيا فيقول إنها على حلاوتها غرور وباطل وقد ذاق عذبهَا وعذابها فليست إلا كالسراب الخادع.. وكالجيفة النتنة «عليها كلاب هَمُّها اجتذابها» وعليها يتخاصم أصحابها الذين هم كالكلاب.

ثم يحذر منها فمن ترفع عنها سالم أهلها وسالموه وإن لهث خلفها لهثت خلفه كلابها وما ذاك إلا لحقارة شأنها وعمى أهلها عن حقيقتها.

(١) سورة الأعراف الآية ٥٦.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٤، ١٤٨، سورة المائدة الآية ٩٣.

(٣) سورة الإسراء الآية ٣٧.

فطوبى «الجنة» لمن حبس نفسه فى بيته بعيدا عن فتنة الدنيا وأرخى بينه وبين أهلها الحُجب، وفى العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، فليدبر المرء أمره ويقلل العلائق ويحفظ جاهه فالأيام قلائل.

الزهد

بلوْتُ[1] بنى الدنيا فلم أر فيهم ... سوى من غدا والبخل ملء إهابه[2]
فجردت من غمد القناعة صارما[3] ... قطعت رجائى منهم بذبابه
فلا ذا يرانى واقفا فى طريقه ... ولا ذا يرانى قاعدا عند بابه
غنىٌ بلا مال عن الناس كلهم ... وليس الغنى إلا عن الشىء لا بِه[4]

شرح الأبيات

تأبى عزة نفس الشافعى أن توقفه مواقف الذل والشين، بعد أن خبر نفوس الناس فعرف فيها الحرص والبخل بالدرهم والدينار فاحتمى بدرع القناعة ولبس كسوة الزهد وقطع رجاءه إلا من الله وهذه شِيم الكرام.

---

(١) بلوْتُ: اختبرت وجربت.
(٢) الإهاب: على وزن كتاب: الجِلد أو ما لم يدبغ.
(٣) الصارم: السيف القاطع، ذُباب السيف: حدُه وأطرافه.
(٤) به: الهاء فى به راجعة إلى الشىء.

والقناعـــة هى الرضا بما دون الكفايـــة، والزهد والاقتصار على الزهيد أى القليـــل وهما يتقاربان؛ لكنّ القناعة تقال اعتبارا برضا النفس والزهد يقـــال اعتبارا بالمتناول لحظ النفـــس، وكل زهد حصل لا عن قناعة فهو تزهد لا زهد، لذلك قال بعض المتصوفة: القناعة أول الزهد تنبيها على أن الإنسان أولا يحتاج إلى قمع نفسه والتخصص بالقناعة ليسهل تعاطى الزهد، فالقناعة هى الغنى فى الحقيقة:

غنـــى بلا مـــال عن النـــاس كلهم وليس الغنى إلا عن الشىء لا بِه

ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء لأنه لا حاجة به إلى شىء.

يقـــول ﷺ: «ليـــس الغنى بكثـــرة العرَض وإنما الغنـــى غنى النفس» [رواه البخارى].

تمنى النفس ما يكفيك من سد خلةٍ فإن زاد شيّاعا عاد ذاك الغنى فقرا

قيل لحكيم: لم لا تغتم؟ فقال: لأنى لم أتخذ ما يغمنى.

ولا يكـــون الزهد بترك المكســـب كما توهمه قوم فبـــذا خراب الدنيا وهـــلاك العالم، فالزهد لا يحصل حقيقة إلا لمـــن يعرف الدنيا ما هى، ويعرف عيوبها وآفاتها ويتحقق ما يســـتغنى عنه منها، ويعرف الآخرة وافتقاره إليها.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[1].

(١) سورة القصص الآية ٧٩- ٨٠.

ولأن الزاهـد فى الدنيا راغب فى الآخرة وهو يبيعها بها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

ومحـالٌ أن يبيـع كَيّس عينا بأثر إلا إذا عرفهـا وعرف فضل المبتاع على المبيع.

قيل لبعض الزهاد: ما أزهدك وأصبرك؟ فقال: أما زهدى فرغبة فيما عند الله وهو أعظم مما أنت فيه، وأما صبرى فلجزعى من النار.

هب الدنيا تُساق إليك عفوا ... أليس يصير ذاك إلى زوال
فما ترجو بعيش ليس يبقى ... وشيكا قد تغيره الليالى
وما دنياك إلا مثل ظل ... أظلك ثم آذن بارتحالِ

مصير الظالمين

إذا ما ظالم استحسن الظلم مذهبا ... ولجّ عتوا[2] فى قبيح اكتسابه
فكِلْه إلى صَرْف الليالى[3] فإنها ... ستدْعى له مالم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا ... يرى النجم تيها[4] تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو فى غفلاته ... أناخت[5] صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يُرتجى ... ولا حسنات تلتقى فى كتابه

(١) سورة التوبة الآية ١١١.

(٢) الاستكبار والتجبر، وقيل: العاتى هو المبالغ فى ركوب المعاصى، المتمرد الذى لا يقع منه الوعظ والتنبيه موقعا.

(٣) صَرْف الليالى: حدثانها ونوائبها ومصائبها.

(٤) تِيها: من تاه يتيه تِيها: تكبرا وتجبرا.

(٥) أناخت: حلّت وجلست، والأصل: ناخ الناقة أبركها وأجلسها.

وجُـوزى بالأمـر الـذى كان فاعلا وصـبّ عليـه الله سـوط عذابـه[1]

شرح الأبيات

الظلـم هو الانحراف عـن العدل ولذلك حُدَّ بأنه: وضع الشـىء فى غـير موضعه المخصوص به، وقد تقدم أن العـدل يجرى مجرى النقطة مـن الدائـرة فتجاوزها من جهة الإفراط عدوان وطغيان، وإليه الإشـارة بقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[2]. والانحراف عنها فى بعض جوانبهـا جور، والظلم أعم الأسمـاء، ولما كان الظلم ترك الحق الجارى مجرى النقطة من الدائرة صار العدول عنها إما قريبا وإما بعيدا، فمن كان عنه أبعد كان رجوعه إليه أصعب ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾[3]. تنبيها إلى أن الشيطان متى أمعن فى البعد من الحق صعب عليهم حينئذ الاهتداء، ولأجل من فعل بهم الشـيطان ذلك قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانۭ بَعِيدٍ﴾[4].

والظالم لايكون ظالما لغيره حتى يظلم أولا نفسـه، والعادل من الناس إذا همّ بالعدل وتحرّاه فقد عدل مع نفسه قبل أن يعدل مع غيره.

وقيل: الظلم ثلاثة: الظلم الأعظم وهو الذى لا يدخل تحت شريعة الله ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[5].

والأوسط: وهو الذى لا يلتزم حكم السلطان.

(١) سوْط عذاب: أشد العذاب.

(٢) سورة النساء الآية ١٦٧.

(٣) سورة النساء الآية ٦٠.

(٤) سورة فصلت الآية ٤٤.

(٥) سورة لقمان الآية ١٣.

والأصغر: وهو الذى يتعطل عن المكاسب والأعمال فيأخذ منافع الناس ولا يعطيهم منافعهم.

ومن خرج عن تعاطى العدل بالطبع وبالخُلق والتخلق والتصنع والرياء والرغبة والرهبة فقد انسلخ من الإنسانية، ومتى صار أهل كل صقع على ذلك فتهاوشوا وتغالبوا وأكل قويهم ضعيفهم ولم يبق فيهم أثر لمن يمنعهم ويصدهم عن الفساد فقد تقدم أن عادة الله سبحانه فى أمثالهم إهلاكهم وإفناؤهم واستئصالهم عن آخرهم.

وهذا المعنى وارد فى قول الإمام الشافعى فى هذه الأبيات عن مآل كل ظالم:

فعما قليل وهو فى غفلاته ... أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يُرتجى ... ولا حسنات تلتقى فى كتابه
وجُوزى بالأمر الذى كان فاعلا ... وصب عليه الله سوْطَ عذابِه

يقول الله جلّ شأنه: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ويقول: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم خرج من الإسلام» [أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير].

وقال ﷺ: «من اقتطع حق امرئ مسلمٍ أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة، فقال له رجل: يا رسول الله ولو كان شيئا يسيرا؟ قال: ولو كان

(١) سورة هود الآية ١٨.

(٢) سورة إبراهيم الآية ٤٢.

قضيبا من أراك» [أخرجه مسلم وابن ماجه].

وفى الحديث: «إياك ودعوة المظلوم فإنما يسأل الله تعالى حقه».

لا تـظـلـمـن إذا ما كنت مقتدرا فـالظـلـم مصدره يفضي إلى الندم
تـنـام عـيـنـاك والمظلوم مـنـتـبـه يـدعـو عليك وعـيـن الله لم تنم

وقال أحدهم: لو أن الجنة- وهى دار البقاء- أُسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب.

وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفّاك الدماء فإن له قاتلا لا يموت.

وروى النبى ﷺ: يقول الله تعالى: «اشتد غضبى على من ظلم مَن لا يجد له ناصراً غيرى» [أخرجه الطبرانى فى المعجم الصغير].

لا أبالى

أنت حسبى وفيك للقلب حسْبُ ولحسبى إن صحّ لى فيك حسْبُ
لا أبالى متَى ودادك لى صحَّ من الدهر ما تَعرّض خطبُ
ولرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت، وكنت أظنها لا تُفرجُ

* * *

إذا أصبحتُ عندى قوتُ يومى فخلِّ الهم عنى يا سعيد
ولا تُخطر همومَ غدٍ ببالى فإن غدا له رزقٌ جديد
أسلِّم إن أراد الله أمرا فأترك ما أريد لما يريدُ

* * *

يقــول المـرءُ فائدتى ومالى وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

* * *

أمطـرِي لؤلـؤا جبال سرنديـ ـب وفيضـى آبار تكرور تبرا
أنا إن عشـت لسـت أعدم قوتا وإذا مُت لسـت أعـدم قبـرا
همتـى همـة الملـوكِ ونـفسي نفسُ حُـرٍ تـرى المذلة كفـرا
وإذا ما قَـنِعتُ بـالقوتِ عمريِ فلمـاذا أزور زيـدا وعمـرا ؟!

* * *

الدهـرُ يومـان ذا أمـنٌ وذا خطـر والعيـش عيشـان ذا صفـوٌ وذا كدر
أما ترى البحر تعـلو فوقـه جِيَـفٌ وتستقـر بأقصـى قاعـه الـدُرَرُ
وفـى السمـاء نجـومٌ لا عـداد لها وليـس يُكْسَـفُ إلا الشمسُ والقمرُ
وما كنتُ راضٍ من زمانى بما ترى ولكننـى راضٍ بمـا حكـم الـدهـرُ
فـإن كانـت الأَيـام خـانت عهـودنا فإنـى بهـا راضٍ ولـكنهـا قهـرُ

* * *

توكلـتُ فى رزقى علـى الله خالقـى وأيقنـتُ أن الله لا شـك رازقـى
ومـا يـكُ مـن رزقى فليس يفوتنى ولـو كـان فى قـاع البحـار العوامقِ
سيأتـى بـه الله العظيـمُ بفضلـه ولـو لـم يكـن منـى اللسانُ بناطقِ
ففى أى شىء تذهبُ النفسُ حسرة وقد قسم الرحمـن رزقَ الخـلائـقِ
لو كنتَ بالعقل تعطـى ما تريد إذن لما ظفـرت مـن الـدنيـا بمـرزوقِ
رزقـت مالا على جهل فعشت بـه فلسـت أول مجنـونٍ ومـرزوقِ

* * *

رأيتُ القناعة رأس الغنى ... فصرتُ بأذيالها متمسك
فلا ذا يرانى على بابه ... ولا ذا يرانى به منهمك
فصرتُ غنيا بلا درهمٍ ... أمُرُّ على الناسِ شبهَ الملِك

* * *

إن الملوك بلاءٌ حيثما حلُّوا ... فلا يكن لك فى أبوابهم ظلُّ
ماذا تؤمِل من قوم إذا غضبوا ... جاروا عليك وإن أرضيتهم ملُوا؟
فاستغنِ بالله عن أبوَّابهم كرما ... إن الوقوف على أبوابهم ذلُ

* * *

قنعتُ بالقوتِ من زمانى ... وصنتُ نفسى عن الهوانِ
خوفا من الناس أن يقولوا ... فضل فلانٍ على فلانِ
من كنتُ عن ماله غنيا ... فلا أبالى إذا جفانى
ومن رآنى بعين نقصٍ ... رأيتُه بالتى رآنى
ومن رآنى بعين تمٍّ ... رأيتُه كاملَ المعانى

* * *

سهرت أعين ونامت عيون ... فى أمورٍ تكونُ أو لا تكونُ
فادرأ الهم ما استطعت عن النفـ ... ـس فحملانك الهموم جنونُ
إن ربا كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك فى غدٍ ما يكونُ
أمتُ مطامعى فأرحت نفسى ... فإن النفس ما طمعت تهونُ
وأحييتُ القنوع وكان ميتا ... ففى إحيائه عرضٌ مصون
إذا طمع يحل بقلبِ عبدٍ ... علته مهانةٌ وعلاه هُوْنُ

شرح الأبيات

جميع الأبيات السابقة لإمامنا المُلْهَم الشافعى تحث على الثقة المُطلقة فى المولى عز و جل وحسن الاعتماد عليه والتوكل الكامل عليه ثم القناعة باليسير والبعد عن أبواب العباد- أو طلب شىء منهم - وعلى رأسهم الملوك وذلك كله متوفر فى شخصية الشافعى فهو عفيف اللسان واليد متعفف عن كل ما فى أيدىالخلْق عالى الهمة يتميز بالأنفة والكبرياء والقناعة فهو يكتفى من الدنيا بأقل القليل مقتديا فى كل هذا بسيد الخلق النبى المعصوم ﷺ فهو تلميذ فى مدرسته ﷺ.

وكل ما يقوله الشافعى فى هذه الأبيات مصداق قول رسولنا ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش».

وكل هم الشافعى متصل بمولاه جل وعلا:

وما يكُ من رزقى فليس يفوتنى ... ولو كان فى قاع البحار العوامق
سيأتى به الله العظيم بفضله ... ولو لم يكن منى اللسان بناطق
أسلم إن أراد الله أمرا ... فأترك ما أريد لما يريدُ

«وربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك» كما يقول ابن عطاء الله فى حكمه، فمنْعُ الله تعالى عبده من نيل شهواته ولذاته، عطاء جزيل منه لأنه أبقاه معه واقتطعه عن حظوظه وأغراضه وجرده منها، وعكس هذا هو المنع- على التحقيق- وإن كان عطاء فى الظاهر.

ولذا وكما يقول الشيخ محيى الدين بن عربى: اختر الترك على

الأخـــذ!! فالواجب على العبد أن يترك التدبير والاختيار لمن بيده ذلك فلن يعدم منه خيرا..

ربما أعطاك متعة الدنيا وزهرتها، فمنعك جمال الحضرة وبهجتها.

وربما منعك زينة الدنيا وبهجتها فأعطاك شهود الحضرة ونظرتها.

ربمـــا أعطـــاك عز الدنيا ومنعـــك عز الآخرة، وربما منعـــك عز الدنيا وأعطاك عز الآخرة.

ربما أعطاك التعزز بالخلق، ومنعك من التعزز بالحق، وربما منعك من التعزز بالخلق وأعطاك التعزز بالملك الحق.

وما أصدق قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾[1].

وفى الاســـتغناء عن الخلق وســـؤالهم عزة النفس وإباءهـــا عن الدنايا والحاجة لغير الله:

قنعـــت بالقوت من زمانى ... وصنت نفسـي عـن الهوانِ
خوفا من الناس أن يقـولوا ... فضـل فـــلانٍ علـــى فـــلان
مـن كنت عـن مالـــه غنيـا ... فـــلا أبـــالى إذا جفـــانـــى

وقوله:

لا تحمـــلـــن لـن يمـــن ... من الأنـام عليـك مِنـة
واختـر لنفسـك حظها ... واصبر فإن الصبر جُنة
منن الرجال على القلو ... ب أشد من وقع الأسنة

* * *

(١) سورة البقرة الآية ٢١٦.

لقلعُ ضِرسٍ وضرب حبسِ ونـزع نفـسٍ وردُ أمـسِ
وقـر بـردٍ وقـود فـرد ودبـغ جلـد بغيـر شمـس
وأكـل ضَـبٍ وصيـد دبٍ وصرف حَبٍ بأرض فرسِ
أهـون مـن وقفـة الحـر يرجو نوالاً بباب نحسِ!

روى الإمام أبو الحسن يحيى بن نجاح قال:

إن عثمان بن عفّان رضى الله عنه أرسـل إلى أبى ذر الغفارى رضى الله عنـه بِصُـرّة فيها نفقة على يد عبد له وقـال للعبد: إن قبلها فأنت حـر، فأتاه بها فلم يقبلها، فقال له العبد: اقبلها يرحمك الله فإنّ فيها عتقي، فقال أبو ذر: إن كان فيها عتقك ففيها رِقي، وأبى أن يقبلها.

مَـردُّ هذا إلى زهد أبى ذر وقناعته ورضاه بالكفاف «وكل ما سـد فقرا فهو مقبول».

لقد علمت وما الإسراف من خلقى أن الـذى هـو رزقى سوف يأتينـى
أسعـى لـه فَيَعْنِينـى تطلبُـه وإن قعـدت أتـانـى لايُعَـنِّينـى!

وفى أبياته يدعو الشافعى إلى القناعة، والغنى عما فى أيدى الناس- خاصة الملوك- وذلك لكبر همته رضى الله عنه، وليس لكبر الهمة إفراط مذموم فى الحقيقة، وكبير الهمة هو من لا يرضى بالهمم الحيوانية قدْر وسعه فيصير من خلفاء الله وأوليائه فى الدنيا ومن مجاوريه فى الآخرة، قال أعرابى: فلان عظّمَهُ صغر الدنيا فى عينيه فكان خارجا من سلطان بطنه فلا يشتهى مالا يجد ولا يُكثر إذا وجد، وخارجا من سلطان فرجه فلا يستخف له رأيا ولا بدنا..

وحــقُ الإنســان أن يتلطف عن الدنايا فإنــه وإن كان بعنصره حيوانا فهو بعقله وفكره ملَك، وإذا ضيّع نفســه صار شرا من البهيمة وذلك هو الخسران المبين.

وقد قيل: من عظمت همته لم يرض بقنية مُستردة وحياة مستعارة، فإن أمكنك أن تقتنى قنية مؤبدة وحياة مخلدة فافعل، فلا اعتداد بما له فناء.

والكبير الهمة- على الإطلاق- من يتحرى الفضائل لا لجاه ولا لثروة ولا للذة ولا لاستشــعار نخوة واستعلاء على البرية، بل يتحرى مصالح العباد شاكرا بذلك أنعمه تعالى ومتوخيا مرضاته غير مكترث بقلة مصاحبيه؛ فإنه إذا عظم المطلوب قل المساعد، وطريق العلاء قليلة الأُناس!!

صفو الوداد والخِل الصدوق

ومن يقضِ حق الجار بعد ابن عمه ... وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يَعِشْ سيـدا يستعـذب الناس ذكره ... وإن نابــه حــق أتــوه علـى قصد

* * *

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن بـرَّ عِندك فيما قال أو فجرا
لقد أطاعـك من يرضيـك ظاهره ... وقد أجلّك من يعصيك مستتـرا

* * *

قيـل لى قـد أسى عليـك فـلان ... ومقـام الفتـى علـى الذُلِّ عارُ
قلت قد جاءنى وأحدث غدرا ... ديـة الـذنب عنـدنا الاعتـذار

* * *

إذا المـرء لا يـرعـاك إلا تـكلفـا ... فدعـه ولا تُكثـر عليـه التـأسفـا
ففى الناس أبدال وفى الترك راحةٌ ... وفـى القلب صبرٌ للحبيب ولو جفا
فمـا كـل مـن تهـواه يهـواك قلبه ... ولا كل مـن صافيتـه لك قـد صفا
إذا لـم يكـن صفـو الـوداد طبيعـةً ... فـلا خيـر فـى خِـلٍ يجـىء تكلفا
ولا خيـر فـى خِـلٍ يخـون خليلـه ... ويلقـاه مـن بعـد المـودة بالجفـا
وينكـر عيشا قـد تقـادم عهـدُه ... ويُظْهِرُ سرا كان بالأمس قد خفـا
سـلامٌ علـى الدنيـا إذا لم يكن بها ... صدِيـقٌ صدُوقٌ صادقُ الوعد منصفا

* * *

ومـن الشقـاوة أن تحِـب ... ومن تحب يحـب غيـرك
أو أن تريـد الخير للإنـ ... ـسان وهـو يريد ضيـرك

* * *

زن مـن وزنـك بمـا وز ... نك وما وزنك به فزنه
من جا إليك فـرح إليـه ... ومن جفـاك فصُـد عنـه
مـن ظـن أنـك دونـه ... فاترك هواه إذن وهنـه
وارجـع إلى رب العباد ... فكـل مـا يـأتيـك منـه

شرح الأبيات

من حببه الله إلى الناس فقد أنعم عليه نعمة وسيعة كما أن من بغضه إليهم فقد جعل له نقمة فظيعة، والسبب فيمن يكون محببا أن من رعاه الله تعالى فصفَّى جوهره وأطاب روحه وحسن عمله حصل له نور يسرى

فى مشـاعر من يراه فيحبه وإياه قصد تعالى بقوله لموسـى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾[1].

وقـال النبـى ﷺ: «إذا أحب الله عبدا نـادى جبريل إن الله يحب فلانـا فأحببه فيحبه جبريـل فينادى جبريل فى أهل السـماء إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض» [رواه البخارى بهذا اللفظ].

ولما ألقى الله تعالى على نبينا عليه السـلام من المحبة قلما كان يأتيه مـن يبغضه فيهم بقلبه إلا إذا رآه وقلب فى آفاق وجهه طرفه وألقى إلى كلامه سمعه أعجب به ففارقه على جميل.

ولو تعامل الناس بالمحبة لاستغنوا عن العدل فقد قيل: العدل خليفة المحبة يسـتعمل حيث لا توجـد المحبة ولذلك عظّـم الله المنة بإيقاع المحبة بين أهـل الملة فقال الله تعـالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[2].

وقال تعـالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾[3] أى محبـةً فى القلوب تنبيها إلى أن ذلك أجلب للعقائد وهـو أفضـل من المهابة، فإن المهابة تنفـر، والمحبة تؤلف، وقد قيل: طاعـة المحبة أفضل من طاعة الرهبة، وهى تزول بزوال سـببها، وكل قوم إذا تحابوا تواصلوا وإذا تواصلوا تعاونو وإذا تعاونوا عملوا وإذا عملوا عمروا وإذا عمّروا عمرُوا «أى إذا نشروا العمران طال عمرهم».

(١) سورة طه الآية ٣٩.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦٣.

(٣) سورة مريم الآية ٩٦.

لهـذا كله يحث الشـافعى- وقـد درس طبائع البشـر- على فضيلة الاهتمـام بحق الجار والقربى والصداقة فمن فعل ذلك سـاد الناس وعلا فيهم ذكره وأتوه فى نوائبهم ووقفوا بجواره وسـاندوه فى نوائبه إن كبَّهُ الدهر والدهر ذو كبوات.

وينبه الشـافعى كذلك على أهمية قبول المعاذيـر.. وهذا لعمرى أولى بالاتبـاع فالمذنب إذا عوقب أو خاف المعتب لا ينفك عن أحد وجهين: إما أن يكون مُصرا أو معتذرا، فأما المُصر فقد يُستحسن فى بعض الأحوال التجافـى عنـه وقد سمع رجـلا حكيما وهو يقول: ذنـب الإصرار أولى بالاغتفـار، فقال: صدق، ليس فضل من عفا عن السـهو القليل كفضل مـن عفا عن العمد الجليل، وأما المعتذر فهو المظهر لما يمحو به الذنب. وجميع المعاذير لا تنفك عن ثلاثة أوجه:

- إما أن يقول: لم أفعل.
- أو يقول: فعلت لأجل كذا فيبين ما يخرجه عن كونه ذنبا.
- أو يقول: فعلت ولا أعود.
- فمن أنكر ما نُسب إليه فقد برئت ذمته.
- وإن فعل وجحد فقد يعد التغابى عنه كرما:

تغابـى ومـا به من غفلة لفرط الحياء وفضل الكرم

- ومن أقر فقد استوجب العفو لحسن ظنه بك، قال بعض الحكماء: تجاوز عن مذنب لم يسلك بالإقرار طريقا حتى أخذ من رجائك رفيقا.
- وإن قال فعلت ولا أعود فهذه هى التوبة، وحق الإنسان أن يقتدى

بالله تعالى فـي قبولهـا ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾[1]، ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

ولـذة العفـو أطيب من لذة التشـفى لأن الأولى يلحقها حمد العاقبة، ولذة العقوبة يلحقها ذم الندم.

ثم بيّن الشافعى الميزان العدل الذى يوزن به الناس، فيقول:

زن مـن وزنك بما وز نك وما وزنك به فزنه
من جـا إليك فرح إليه ومن جفـاك فصُـد عنه

فالحكمة مطلوبة فى التعامل مع الناس وكرامة الإنسـان الذى كرمه الله أولى من الوداد مع المذلة فالوداد إن لم يكن متبادلا فلا حاجة للمرء إليه:

ومـن الشقـاوة أن تحـب ومن تحـب يحـب غيـرك
أو أن تريـد الخيـر للإنـ ـسان وهو يريد ضيرك!!

ويقول فى نفس المعنى الكريم:

إذا المـرء لا يـرعاك إلا تكلفـا فدعـه ولا تُكثـر عليـه التأسفـا
ففى الناس أبدالٌ وفى الترك راحةٌ وفـى القلب صبر للحبيب ولو جفا
إذا لـم يكـن صفـو الـوداد طبيعـةً فلا خيـر فـى خِـلٍ يجـىء تكلفـا
ولا خيـر فـى خِـلٍ يخـون خليلـه ويلقاه مـن بعـدٍ المـودة بالجفـا

فالصداقة كنز نادر ثمين ولكثرة نفع الصديق قال حكيم عنه: هو أنت بالنفس إلا إنه غيرك بالشخص.

(١) سورة النور الآية ٢٢.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠.

ومن وجد إخوانا ذوى ثقة وَجَدَ بهم عيونا وآذانا وقلوبا كلها له فيرى الغائب بصورة الشاهد.

لكنّ اختيار من تركن إليه لتصادقه أمر صعب إذ قد يتشيع لك الناقص فتظنه فاضلا فيكون: كمن يحسب الشحم فيمن شحمه ورم!!

وحق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار، فإن الحكماء يقولون: «من صحب خيرًا أصابته بركته فجليس أولياء الله لا يشقى ولو كان كلبا ككلب أهل الكهف فإن الله تعالى ذكره فى كتابه العزيز فقال: ﴿وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ﴾[1]. ولذا أوصى العلماء والحكماء بالبعد عن مصاحبة ومجالسة السفهاء، قال الإمام على رضى الله عنه: «لا تصحب الفاجر فيزين لك فعله ويود لو أنك مثله» وقد قيل: «جالسوا من تُذكركم بالله رؤيتُه ويزيد فى خيركم نطقه» وقال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل». [رواه الترمذى].

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى[2]

فإذا تحرى الإنسان أصول اختيار الصديق ثم وجده على عكس مراده ولم يجد منه الألفة والمودة والأمانة والثقة وحسن العشرة فليكن ذا مروءة وكرامة وعزة ولينصرف عنه وليقل كما قال الشافعى:

سلامٌ على الدنيا إذا لم يكن بها صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ منصِفَا

(١) سورة الكهف الآية ١٨.

(٢) البيت لطرفة بن العبد «انظر المعلقات السبع».

قلة الإخوان

ولّما أتيت الناس أطلبُ عندهم ... أخا ثقة عند ابتلاء الشدائدِ
تقلبت فى دهرى رخاءً وشدةً ... وناديت فى الأحياء هل من مساعدِ
فلم أر فيما ساءنى غير شامتٍ ... ولم أر فيما سرنى غير حاسد

* * *

إنى صحبت الناسَ مالهم عددُ ... وكنتُ أحسب أنى قد ملأت يدي
لما بلوتُ أخلائى وجدتهمُ ... كالدهر فى الغدر لم يُبقوا على أحد
إن غبت عنهم فشر الناس يشتمنى ... وإن مرضت فخير الناس لم يعد
وإن رأونى بخير ساءهم فرحى ... وإن رأونى بشر سرهم نكدى

* * *

كن ساكنا فى ذا الزمان بسيره ... وعن الورى كن راهبا فى دَيره
واغسل يديك من الزمان وأهله ... واحذر مودتهم تنل من خيره
إنى اطلعت فلم أجد لى صاحبا ... أصحبه فى الدهر ولا فى غيره
فتركت أسفلهم لكثرة شره ... وتركت أعلاهم لقلة خيره

* * *

صديقٌ ليس ينفع يوم بؤس ... قريب من عدو فى القياس
وما يبقى الصديق بكل عصرٍ ... ولا الإخوان إلا للتآسى
عمرتُ الدهر ملتمسا بجهدى ... أخا ثقة فألهانى التماسى

تنكرت البلاد ومن عليها كأن أُناسها ليسوا بناسي

* * *

لم يبق فى الناس إلا المكرُ والملقُ[1] شوكٌ، إذا لمسوا، زهرٌ إذا رمقوا[2]
فإن دعتك ضروراتٌ لعشرتهم فكن جحيما لعلّ الشوك يحترقُ

* * *

نعيب زماننا والعيب فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا
ونهجو ذا الزمان بغير ذنبٍ ولو نطق الزمان لنا هجانا
وليس الذئب يأكل لحم ذئبٍ ويأكل بعضنا بعضا عَيانا

شرح الأبيات

حال الناس فى كل زمان لا يسر الصديق ولا يرضى العدو، وهذا ما خبره الشافعى بعد طول تجربة وسفر وترحال بين البلاد وأهلها.

أبى الناسُ إلا ذميم الفعال إذا جربوا وقبيح الكذب

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ﴾[3].

وقال ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة فى النار»[4].

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «ثلاث من كُنّ فيه كُن عليه:

(١) المكر والملق: الخداع.
(٢) رمقوا: نظروا إلى الشىء، والرمق بقية الروح.
(٣) سورة الأعراف الآية ١٠٢.
(٤) ذكره أبو داود فى المراسيل.

البغى والنكث والمكر» يقول سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

وكم أوقع الغدر فى المهالك من غادر، وضافت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوّقه غدره طوق قرى فهو على فكه غير قادر، وأوقعه فى خطة نسف وورطة حتف فما له من قوة ولا ناصر!!

وكان يقال: لم يغدر غادر قط إلا لصغر همته عن الوفاء وضعف قدره عن احتمال المكاره فى جنب نيل المكارم.

غدرت بأمر كنت أنت جذبتنا إليه، وبئس الشيمة الغدر بالعهد

ولما حلف محمد الأمين للمأمون فى بيت الله الحرام- وهما وليا عهد - طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذلنى الله إن خذلته، فقال ذلك ثلاث مرات، فقال الفضل بن الربيع: قال لى الأمين فى ذلك الوقت عند خروجه من بيت الله: يا أبا العباس أجد فى نفسى أن أمرى لا يتم فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟

قال: لأنى كنتَ أحلف وأنا أنوى الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وحال الناس - كما قال الشافعى - يدل على قلة الأصدقاء وندرتهم وذلك لكثرة الغش فى البرية، ومن غَشَّ المحبة والصداقة كان أسوأ حالا ممن غش الدرهم والدينار فإن الحكيم ذكر أن المحبة المغشوشة تنحل سريعا وتفسد وشيكا كما أن الدرهم والدينار إذا كانا مغشوشين فسدا سريعا.

فالسعيد من اكتسب الأصدقاء واجتهد فى بذل الخيرات لهم ليكتسب بهم مالا يقدر أن يكتسبه لذاته فيلتذ بهم ويلتذون به أيام حياته.

(١) سورة فاطر الآية ٤٣.

فلما قلّ الوفاء وكثر الغدر وانتشـرت الخيانـة كان طيب العيش فى العزلة- كما يقول الشافعى ويوافقه ابن الجوزى فيقول فى كتابه الفريد: صيد الخاطر: «العزلة عن الخلق سبب طيب العيش، ولابد من مخالطة بمقـدار، فـدارِ العدو واسـتحله فربما كادك فأهلكك، وأحسـن إلى من أسـاء إليك واستعن على أمورك بالكتمان، وليكن الناسُ عندك معارف؛ فأما أصدقاء فلا.. لأن أعز الأشياء وجود صديق.. فإن صادفته عاميا لم تنتفع به لسـوء أخلاقه، وقلة علمه وأدبه، وإن صادفت مائلا أو مقاربا حسدك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[1].

فإن أردت العيش فابعد عن الحسـود لأنه يرى نعمتك فربما أصابها بالعـين. فـإن اضطـررت إلى مخالطته فلا تُفش له سـرك ولا تشـاوره ولا يغرنك تملقه لك ولا ما يظهره من الدين والتعبد فإن الحسـد يغلب الدِين.. وقد عرفت أن قابيل أخرجه الحسد إلى القتل!

وما طاب عيش أهل الجنة إلا حين نُزِع الحسـد والغل من صدورهم، ولولا أنه نُزِعَ لتحاسدوا ولتنغص عيشهم.

دعوة المظلوم

ورُبَّ ظلـوم[2] قـد كُفيتُ بحربه ... فأَوْقَعَـهُ المقـدورُ أىَّ وقـوعِ
فمـا كـان لَـى الإسـلامُ إلا تعبدا ... وأدعيـة لا تتـقـى بـدروع

(١) سورة محمد الآية ٣٠.

(٢) ظلوم: ظالم وظلوم بمعنى واحد إلا أن الثانية صيغة مبالغة تفيد الكثرة فى الظلم.

وحسبكِ أن ينجو الظلوم وخلفه سهامُ دعاءٍ مِنْ قِسِيٍّ[1] رُكوع
مُريشةٌ بالهُدْبِ[2] من كل ساهرٍ منهَلَّةٌ أطرافُها بدموعِ

شرح الأبيات

يحذر الشافعى من الظلم فالظلم كما جاء فى الحديث: «ظلمات يوم القيامة»، فالمظلوم – وإن كان ضعيفا – إلا أن يد القدرة الإلهية معه تربت على كتفه، ورب العرش يسمع صوته من فوق سبع سماوات، فلن ينجو ظلوم خلفه سهام دعاء (وهذه الجملة استعارة تفيد تشبيه دعوات المظلوم لشدة وقعها بالسهام الحادة التى تعرف هدفها)، كذا دعوات الراكع الساجد وهو مظلوم تصعد إلى السماء والدعوات المُريشة بالأهداب ترفع الشكوى من الظالم الغشوم.

والإنسان العادل: يستعمل العدالة فى ذاته وفى غيره، كما أن الإنسان الجائر يستعمل الجور فى ذاته وفى غيره، وليست العدالة جزءا من الفضيلة؛ بل هى الفضيلة نفسها، ولا الجَوْر جزءا من الرذيلة؛ بل هو الرذيلة نفسها.

وبعض أنواع الظلم أو الجور ظاهر ينفعل بالإرادة مثلما يكون فى البيع والشراء والكفالات والقروض والعوارى (جمع عارية وهى الشىءُ المعار)، وبعضها خفى ينفعل بالإرادة أيضا مثل السرقة والفجور والقيادة وخداع المماليك وشهادة الزور.

---

(١) القِسِىّ: جمع القوس والقوس آلة على هيئة هلال ترمى بها السهام.

(٢) مُريشة بالهُدْب: كناية عن لصق شعر الأهداب فيها، كما يلصق الريش على مؤخرة السهام ليزيده سرعة. والمعنى: اتقِ دعوة المظلوم فإنها أشد نفاذا من السهام المُريشة، وإن كان ريشها هدب العيون ومددها دموع عين المظلوم.

وبعضها غشمي على سبيل التغلب مثل التعذيب بالآلات والقيود والأغلال، يقول ابن الجوزى: «مازلت أسمع عن جماعة من الأكابر وأرباب المناصب أنهم يشربون الخمور ويفسقون ويظلمون ويفعلون أشياء توجب الحدود، فبقيت أتفكر أقول: متى يثبت على مثل هؤلاء ما يوجب حدا؟ فلو ثبت فمن يقيمه؟ وأستبعد هذا فى العادة لأنهم فى مقام احترام الناس، لأجل مناصبهم،.. حتى رأيناهم قد نكبوا وأخذوا مرات، ومرت عليهم العجائب، فقوبل ظلمهم بأخذ أموالهم، وأخذت منهم الحدود مضاعفة بعد الحبس الطويل والقيد الثقيل والذل العظيم... وفيهم من قُتل بعد ملاقاة كل شدة، فعلمتُ أنه لا يهمل شيئا.. فالحذرَ الحذرَ؛ فإن العقوبة آتية.. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1].

والمعين للظالم ظالم مثله... طال تعجبى من مؤمن بالله عز وجل مؤمن بجزائه يؤثر خدمة السلطان مع ما يرى منه من الجور الظاهر.. فواعجبا ما الذى يعجبه؟! إن كان الذى يعجبه دنيويا فليس ثم إلا أن يصاح بين يديه بسم الله، وأن يتصدر فى المجالس ويلوى عنقه كبرا على النظراء... ثم يقابل هذا بأن يصادر ويعزل... فتستخرج منه تلك المرارة من كل حلاوة كانت فى الولاية، وربما كان رقيق الحال (ليس غنيا) فافتقر بالمصادرة جدا، ثم تنطلق الألسن المادحة بالذم، ثم لو سلم من هذا لم يسلم من الرقيب له والحذر منه، فهو كراكب البحر؛ إن سلم بدنه من الغرق لم يسلم قلبه من الخوف، وإن كان ديّنا فإنه يعلم أنهم لا يمكنونه – فى الغالب – من العمل بمقتضى الدين لأنهم يأمرونه بترك ما يجب وفعل ما لا يجوز، فيذهب دينه على البارد».

(١) سورة الفجر الآية ١٤.

إذا سبى نذل تزايدت رفعةً ... وما العيب إلا أن أكون مسابَبَه
ولو لم تكن نفسى علىّ عزيزةً ... لكنتها من كل نذلٍ تحاربه
ولو أننى أسعى لنفعي وجدتنِي ... كثير التوانى للذى أنا طالبُه
ولكننى أسعى لأنفع صاحبى ... وعارٌ على الشبعان إن جاع صاحبُه

* * *

يخاطبنى السفيه بكل قبح ... فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهةً فأزيد حِلمًا ... كعودٍ زاده الإحراقُ طيبا

* * *

إذا نطق السفيه فلا تجبهُ ... فخيرٌ من إجابته السكوتُ
فإن كلمته فرَّجت عنه ... وإن خليته كمدا يموت

* * *

لما عفوت ولما أحقد على أحد ... أرحت نفسى من همِّ العداوات
إنى أحيى عدوى عند رؤيته ... لأدفع الشر عنى بالتحيات
وأظهر البِشْر للإنسان أبغضه ... كما إنْ قد حشا قلبى مَحباتِ
الناس داءٌ وداء الناس قربُهمُ ... وفى اعتزالهمُ قطع المودات

* * *

شرح الأبيات

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول ﷺ: رأيت قصورا مشرفة على الجنة فقلت: يا جبريل لمن هذه؟ قال: للكاظمين الغيظ والعافين عن الناس.

وقال الحسن بن أبى الحسن: «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ: من كان له على الله أجر فليقم فلا يقم إلا العافون عن الناس، وتلا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾[2].

وقال على رضى الله عنه: «أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة».

وقال أيضا: «إن أول عوض الحليم عن حلمه أن الناس أنصار له على الجاهل».

وقال المنتصر: لذة العفو يلحقها حمد العاقبة، ولذة التشفى يلحقها ذم الندم».

وكان الأحنف رحمه الله تعالى كثير العفو والتحمل والحلم وكان يقول: ما آذانى أحد إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث:

إن كان فوقى عرفت له فضله، وإن كان مثلى تفضلت عليه، وإن كان دونى أكرمت نفسى عنه.. وبذلك ساد عشيرته.

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٤.

(٢) سورة الشورى الآية ٤٠.

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر وإذا رأى زلة ستر.

وقيل: من انتقم فقد شفى غيظه وأخذ حقه فلم يجب شكره ولم يحمد فى العالمين ذكره. والعرب تقول: لا سؤدد مع الانتقام.

إذا كنت مختصا لنفسك صاحبا فمن قبل أن تلقاه بالود أغضبه
فإن كان فى حال القطيعة منصفا وإلا فقد جربته فتجنبه

وقال آخر:

وجهل رددناه بفضل حلومنا ولو أننا شئنا رددناه بالجهل

وكان رسول الله ﷺ القدوة المُثلى فى الحِلم..

كان ﷺ يقسِّم الغنائم يوم حُنين فجاءه أعرابى فقال: يا نبى الله اعدل، فقال له النبى ﷺ: ويحك! فمن يعدل إذا لم أعدِل؟! فقد خِبت وخسرت إذا لم أعدل، فقال عمر: يا رسول الله ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال النبى الكريم الحليم: معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى!!

إنه رسول الله.. لا يقابل السيئة بالسيئة ولكنه يعفو ويصفح.. لقد أدبه ربه فأحسن تأديبه.. كان قرآنا يمشى على الأرض وكان خلقه القرآن.

ما أكثر الأنذال السفهاء الذين يقابلهم الإنسان فى حياته فلو أنه قابلهم بسفه يردُّ به سفاهتهم لتكدرت حياته وأظلمت معيشته وتدخل الشيطان بينه وبينهم، ولكن فى الحلم راحة قلبه حيث يقيض الله له ملكا يرد عنه، وهل يستطيع إنسان أن يرد كما يرد الملك؟!

ويقول الشافعى مؤكدا حسن خلقه مع أصحابه:

ولكننـــى أسعـــى لأنفع صاحبـــى وعارٌ على الشبعان إن جاع صاحبـه

كان الإيثـــار من أخلاقه التى يعيش بها بين الناس، وصاحب الخلق الحسن محبوب من الله ورسوله ﷺ، يقول ﷺ: «ألا أدلكم على أقربكم منى مجلسا يوم القيامة؟ أحسنكم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون» [رواه الطبرانى والبزّار].

يعلم الشـــافعى أن الدنيا مزرعة للآخرة فمن زرع خيرا حصد سلامة، ومن زرع شرا حصد ندامة ولكن لا تنفع ساعة ندامة.

المؤمن يعلم أن عمره يســـير به سير الســـفينة بركابها، فهو فى الحقيقة مسافر، أول منازل رحلته فى دنيا المهد، وآخر محطة الوصول هى اللحد، ووطنه بعد الرحلة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وقال قائل: أفضل الناس من عاش الناس فى فضله.

وبـــاع طلحة بـــن عثمان رضى الله تعـــالى عنه أرضا بســـبعمائة ألف درهـــم فلما جاءه المال قال: إن رجلا يبيت هذا عنده لا يدرى ما يطرقه الغرير[2] بالله تعالى ثم قسمه فى المسلمين.

وقد قال رســـول الله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السُفلى» [أخرجه البخارى].

من أعظم الغلط الثقة بالناس والاسترسال إلى الأصدقاء؛ فإن أشد الأعداء وأكثرهـــم أذى الصديق المنقلب عدوا؛ لأنه قد اطّلع على خفيِ الســـر، قال الشاعر الحكيم:

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٣.

(٢) غـــرُّ الرجـــل: غرة، جهل الأمور وغفل عنها فهو غِرّ، والغَرير: الشـــاب لا تجربة له، الجمع: أغِرَّة، وأغرّاء.

احـــذر عـــدوك مـــرةً واحذر صديقك ألف مرة
فلربمـا انقلـب الصديـ ـق فكـان أعلـم بالمضـرة

فإن قلتَ: كيف يبقى الإنسان بلا صديق؟ قلتُ لك: أتراك ما تعلم أن المجانس يحســد، وأن من رآك ويعتقدك مِثلا له – وقد ارتقيت عليه – فلابد أن يتأثر وربما حســد، فإن إخوة يوسف – عليه السلام– من هذا الجنس جرى لهم ما شانهم.

فاقنع من الأصدقاء بالقليل ثم لا تلقه إلا متدرعا درع الحذر، ولا تطلعه على باطن يمكن أن يُستر عنه، وكن كمن قال عن الذئب:

ينـام بإحـدى مقلتيـه ويتقـي بأخرى الأعادى فهو يقظان هاجع

وإذا عاملـت الأذكياء فاحذر غاية الحذر، وأقوى ما ينبغى أن يكون الاحتراز من موتور؛ فإنك إذا آذيت شخصا فقد غرست فى قلبه العداوة، فإذا خاطبك السفيه بالقبح خاطبه بزين القول ولين الكلام حتى لا تتخذه عدوا، فمن التغفل أن تعاقب شخصا أو تسىء إليه إساءة عظيمة، وتعلم أن مثـل ذلك يجدد الحقد فى قلبـه، فربما عمل لك المحن ونصب لك المكايد كما جرى لقصير مع الزباء وأخبارهما معروفة.

وإياك أن تسـاكن من آذيتـه، وإن كان ولابد فمـن بعيد، فما تؤمَن الأحقـاد. ومتى رأيت عدوك – فيه غفلة – فأحسـن إليه فإنه ينسـى عداوتك ولا يظن أنك قد أضمرت له جزاء على قبح فعله، فحينئذ تقدر على بلوغ كل غرض منه.

ومن الخور إظهار العداوة للعدو.. ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسـر شـوكتهم... ولو لم يمكن ذاك كان التلطف سببا فى

كف أكفهم عن الأذى.. وفيهم من يستحى لحُسن فعلك فيتغير قلبه لك. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1].

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه فهم بالعاجل يكفون شره، ويحتالون فى تقليب قلبه، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيل عليه إن أرادوا.

إذا نطق السفيه فلا تجبه فخيرٌ من إجابته السكوت

وقد قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» [أخرجه البخارى].

وقال الشافعى فى كتابه (الأم): «إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر فى كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتىٰ تظهر».

وعن أبى موسى الأشعرى قال: قلت يا رسول الله: أيِ المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه ويده» [أخرجه البخارى].

وقال الشافعى:

احفظ لسانك أيها الإنسان لا يلدغنك إنه ثعبان
كم فى المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

وقال علىِ بن هشام – رحمة الله عليه:

لعمرك إن الحِلم زين لأهله وما الحلم إلا عادة وتحلم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة وعِىٍ فإن الصمت أولى وأسلم

(١) سورة فصلت الآية ٣٤.

وقيل لرجل: بما سادكم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سِنا ولا بأكثركم مالا؟ فقال: بقوة سلطانه على لسانه.

وقال أبو الأسود الدؤلى:

وإنى لينهانى عن الجهل والخنا وعن شتم أقوام خلائقُ أربعُ
حياءٌ وإسلامٌ وتقوى وإننى كريمٌ ومثلى مَن يُضر ويَنفع
فشتان ما بينى وبينك إننى على كل حالٍ أستقيم وتضلع

«فمتى رأيت صاحبك قد غضب وأخذ يتكلم بما لا يصلح فلا ينبغى أن تعقد على ما يقوله خنصرا ولا أن تؤاخذه به؛ فإن حاله حال السكران لا يدرى بما يجرى.. بل اصبر لفورته ولا تُعوِّل عليها فإن الشيطان قد غلبه، والطبع قد هاج، والعقل قد استتر. ومتى أخذت فى نفسك عليه، أو أجبته بمقتضى فعله كنت كعاقل واجه مجنونا، أو كمفيق عاتب مغميا عليه، فالذنب لك.

بل انظر بعين الرحمة، وتلمح تصريف القدر له، وتفرج فى لعب الطبع به، واعلم أنه إذا انتبه ندم على ما جرى وعرف لك فضل الصبر.

ومتى قوبل على حالته ومقالته صارت العداوة متمكنة، وجازى فى الإفاقة على ما فُعل فى حقه وقت السُكر. وأكثر الناس على غير هذه الطريق، متى رأوا غضبان قابلوه بما يقول ويعمل، وهذا على غير مقتضى الحكمة؛ بل الحكمة ما ذكرته، وما يعقلها إلا العالمون[1].

---

(١) صيد الخاطر: ابن الجوزى ص ٢٤١ مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

الجُود والكرم

يا لهـف[1] نفسـى على مالٍ أفرقه ... علـى المقليـن[2] من أهـل المـروءاتِ
إن اعتـذارى إلى مـن جـاء يسـألنى ... ما ليس عندى لمن إحدى المصيبـاتِ

* * *

إذا لـم تجـودوا والأمـور بكـم تمضـى ... وقد ملكـت أيديكـمُ البسْـط[3] والقبْضا
فمـاذا يـُرجّـَى[4] منكـمُ إنْ عـزلتـم[5] ... وعضتكـمُ[6] الدنيـا بأنيـابهـا عَضّـا
وتستـرجع الأيـامُ مـا وهبتكـمُ[7] ... ومن عادةِ الأيام أن تسترجع القرْضا[8]

* * *

أجود[9] بموجـودٍ[10] ولـو بِتُّ طاويا[11] ... على الجوع كشحا[12] والحشا[13] يتألمُ[14]

---

(١) يا لهف: يا حسرة نفسى والفعل لهِف، والتلهف على الشيء التحسر والحزن عليه.
(٢) المقلين: قليلو المال.
(٣) البسط: المد، مد يد العون للآخرين، أو المساعدة، والقبض عكسها.
(٤) يرجى: يُنتظر.
(٥) عزلتم: عزله أفرده، يقال: أنا عن هذا الأمر بمعزِل.
(٦) عضتكم: جاءتكم الكوارث والمصائب.
(٧) وهبتكم: أعطتكم.
(٨) القرض: العطايا.
(٩) أجود: أكرم.
(١٠) موجود: ما عندى.
(١١) طاويا: جائعا.
(١٢) كشح: البخيل.
(١٣) الحشا: المعدة والأمعاء.
(١٤) يتألم: يتوجع.

وأُظهـــر أسبـاب الغنـــى بيـن رفقتي[1] ليخفاهـــم[2] حَـــالي وإنـــى لُعـــدَمُ[3]
وبينـــى وبيـــن الله أشكـــو فاقتـــى[4] حقيقـــا[5] فـــإن الله بالحـــال أعلـــمُ[6]

شرح الأبيات

تدور الأبيات حول معنى الجـــود والكرم، والجود بذل المال، وأنفعه ما صُرف فى أوجه اســـتحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه فى قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾[7]. وإليه ذهب الشافعى فى أول ديوانه:

وإن كثـرت عيوبك فى البرايا وسـرّك أن يكـون لهـا غطـاءُ
تستـــر بالسخـــاء فكل عيبٍ يغطيـــه كمـــا قيـــل السخـــاءُ

وقيل: من أعطى البعض وأمسك البعض فهو صاحب سخاء.
ومن بذل الأكثر فهو صاحب جود.
ومن آثر غيره بالحاضر وبقى هو فى مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار.
وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطى بخيلا إذا صعب عليه البذل، والممسك سخيا إذا كان لا يستصعب العطاء.

(١) رفقتى: أصحابى.
(٢) ليخفاهم: خفى عنهم، لم يعرفوا.
(٣) معدم: فقير ليس عندى شيئا.
(٤) فاقتى: فقرى وقلة ما عندى.
(٥) حقيقا: حقا.
(٦) أعلم: عليم.
(٧) سورة آل عمران الآية ٩٢.

ومن أشـــهر الناس فى الكرم رســـول الله ﷺ؛ بل ومن أعظمهم سخاء وجودا؛ كان يعطى السائل مهما سأل وإن كان لا يملك فكان ﷺ يقترض ليفى بحاجة الســائل، وكان فى شهر رمضان يعطى حتى يُشبّه بالريح المُرسَــلة، ومن عُرف بالســخاء فى العرب حاتم الطائى فقد كان أجود العرب وربما بات طاويا وضيفه شــبعان؛ بل ربما ذبح فرسه إن لم يجد غيرها يقدمها لضيفه!

ومــن بعــده عُرف معــن بن زائــدة بالكــرم العظيم، ومما قيل فيه وفى جوده:

يقولـون معــن لا زكـــاة لمالــه ... وكيف يزكى المال من هو باذلـه
إذا حال حول لم تجد فى دياره ... مـن المـال إلا ذكـره وجمـائلـــه
تــراه إذا مــا جئتــه متهلـــلا ... كأنــك تعطيــه الذى أنت نائله
تعـود بسـط الكف حتى لو أنه ... أراد انقباضا لـم تطعــه أنامله
فلو لم يكن فى كفـه غيـر نفسـه ... لجــاد بهـا فليتــق الله سائلُــه

وقــال بعض العرب لولده: يا بنى لا تزهدنَّ فى المعروف، فإن الدهر ذو صروف، فكم راغب كان مرغوبا إليه وكم طالب كان مطلوبا ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعـد مـن الرحمن فضلا ونعمة ... عليك إذا ما جـاء للخير طالب
ولا تمنعنَّ ذا حاجة جاء راغبا ... فإنك لا تدرى متى أنت راغب

وقال آخر:

أيقنـت أن من السماح شجاعة ... وعلمت أن من السماحة جودا

والجود خمسة أضرب:

١- جود الإله تعالى: وهو البذل لكل أحد على قدر استحقاقه.

٢- جود الملوك: وهو بسط المال على العفاة غنيهم وفقيرهم: (والعفاة: طلاب المعروف والواحد عاف).

٣- جود السوقة: الذين هم دون الملوك وهو بذل المال للسؤال.

٤- جود الصعاليك: وهو البذل للندامى والمعاشرين.

٥- جود عوام الناس: وهو الإحسان إلى الأقارب.

والمحمود من ذلك كله الجود الإلهى؛ وهو بذل الموجود بقدر الطاقة لكل محتاج بقدر استحقاقه من غير امتنان ولا تأذى؛ فالمعطى ما يحتاج إليه لمن لا يحتاج مسرف مضيع، والمعطى غيره شيئا لرهبة واقٍ نفسه، والمعطى لرغبة فى مثوبة أو لمحمدة دنيوية تاجر.

فتى يشترى حسن الثناء بماله ... ويعلم أن الدائرات تدور

وقال آخر:

وتاجر البر لا يزال له ... ربحان فى كل متجر تجره
أجر وحمد وإنما ... طلب الأجر ولكن كلاهما اعتوره

وقد أجاد بشار فى قوله:

ليس يعطيك للرجاء أو الخوف ... ولكن يلذ طعم العطاء

وعن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال: خطب رسول الله ﷺ

فقال: «إياكم والشُّـح؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالشـح، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا» [رواه أبو داود فى سننه وإسناده صحيح].

والشُّـح فى اللغة: غريزة وجبلَّةٌ فى الإنسان تحمله على البخل والحـرص والطمـع والحقد والحسـد والقطيعة والفجـور، بدليل ما جـاء فى القـرآن الكريـم، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، ومفهوم هذا الشـرط أنه من لم يتق شح نفسه فهو من الخاسرين.

ومن هنا نفهم أن الشُح أوسع دائرةً من البخل، فالبخل هو منع الحقوق الشـرعية أو التى تقتضيها المروءة، والشـح مُركب من مجموعة آفات، كل آفة أكبر من أختها.

والحـرص أخـو البخـل، ونقصد به الحـرص على ما فـى اليد من مـال ونحوه مما يسـتمتع المرء به وينتفع بوجـوده ولا يصبر على بعده عنـه ولا يسـره فراقه بحال، وربما أدى الحـرص بصاحبه إلى تقديس ما يحرص عليه حتى يكون منه بمنزلة السمع والبصر فيجعله مبلغ همه ومنتهى أمله فيصير عبدا له، وينسـى معـه الوظيفة التى خلقه الله من أجلها.. وربما دفع به حرصه إلى الفجور وهو ارتكاب ما لا يحل شـرعا من أجل البقاء على ما فى يديه والطمع فى زيادته وتنميته بشتى الطرق المشـروعة وغير المشـروعة، فهو عبدٌ لما ملك وعبد لما يطمع فى تملكه، وهذا هو الخسران المبين فى الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة التغابن الآية ١٦.

وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم وعبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[1] [رواه البخارى].

فإذا اجتمع البخل والحرص والطمع فهو الشح[2].

ولا ينكر أن الطباع تحب المال لأنه سبب بقاء الأبدان؛ لكنه يزيد حبه فى بعض القلوب حتى يصير محبوبا لذاته لا للتوصل به إلى المقاصد.

فترى البخيل يحمل نفسه على العجائب ويمنعها اللذات، وتصير لذاته فى جمع المال، وهذه جبلة فى خلق كثير.

وليس العجب أن تكون فى الجهال وينبغى أن يؤثر فيها عند العلماء المجاهدة للطبع ومخالفته خصوصا فى الأفعال اللازمة للمال.

أما أن يكون العالِم جامعا للمال من وجوه قبيحة ومن شبهات قوية وبحرص شديد، وبذُل فى الطلب ثم يأخذ من الزكوات- ولا تحل له مع الغنى- ثم يدخره ولا ينفع به فهذه بهيمية تخرج من صفات الآدمية.

فالويل لهؤلاء.. ما أقل ما يتمتعون بظواهر الدنيا، وإن كان مقلب القلوب قد صرف القلوب عن محبتهم لأن الحق عز وجل لا يُميل بالقلوب إلا إلى المخلصين، فقد فاتتهم الدنيا على الحقيقة وما حَصّلوا إلا صورة الحطام!

---

(١) الخميصة: ثوب نفيس له أعلام.

إذا شيك: أى إذا أصابته شوكة لا يجد من ينقشها له أى ينتفها له.

(٢) وصايا الرسول: د/ محمد بكر إسماعيل ط/ ٢٢٥ وما بعدها- دار المنار- القاهرة.

زينة الإنسان

علـيّ ثيـاب لـو يُبـاع جميعُهـا ... بفلسٍ لكان الفِلس منهـن أكثـرَا
وفيهـن نفسٌ لـو تقاس ببعضها ... نفوسُ الـورى كـانت أجلَّ وأكبرَا
وما ضر نصلَ السيف إخلاق غمده ... إذا كان عضبا أين وجهتـه فـرى

* * *

صن النفس واحملها على ما يزينُها ... تعـش سالـما والقـولُ فيـك جميـلُ
ولا تولـين النـاسَ إلا تجمـلا ... نَبَـا بـك دهـرٌ أو جفـاك خليـل
وإن ضاق رزق اليوم فاصبـر إلى غـد ... عسى نكبـات الدهـر عنـك تـزول
ولا خيـر فى وُدّ امـرئ متلـونٍ ... إذا الريـح مالـت، مال حيث تميل
ومـا أكثرَ الإخـوانَ حـين تعـدهـم ... ولكنهـم فـى النـائبـات قليـل

* * *

عِفُّوا تعف نساؤكم فى المحرم ... وتجنبـوا مـالا يليـق بمسلـم
إن الزنـا دَيْـنٌ فـإن أقـرضتـه ... كان الوفـا من أهل بيتـك فاعلِم

* * *

يا هاتكا حُرُمَ الرجال وقاطعا ... سبُل المـودة عشـت غير مُكرَّم
لو كنت حرا من سلالة ماجدٍ ... ما كنت هتّاكا لحُرْمـة مسلم
من يَزْنِ يُزن به ولـو بجداره ... إن كنت يـا هـذا لبيبـا فافهم

* * *

قنعتُ بالقوت من زمانى وصُنت نفسى عن الهوان
خوفا من الناس أن يقولوا فضل فلان على فلان
من كنت عن ماله غنيا فلا أبالى إذا جفانى
ومن رآنى بعين نقصٍ رأيته بالتى رآنى
ومن رآنى بعين تمٍّ رأيته كامل المعانى

* * *

إذا رمت أن تحيا سليما من الردى ودينك موفور وعرضك صيّن
فلا ينطقنْ منك اللسانُ بسوأة فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائبا فدعها، وقل يا عينُ للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ودافع ولكن بالتى هى أحسن

* * *

إن لله عبادا فطنا تركوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحىٍّ وطنا
جعلوها لُجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سُفُنا
أمتُّ مطامعى فأرحت نفسى فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتا ففى إحيائه عرضٌ مصون
إذا طمع يحل بقلب عبدٍ علته مهانة وعلاه هون

شرح الأبيات

يحاول الشافعى فى ديوانه إصلاح قوى النفس فإصلاح الفكرة بالتعلم حتى يميز بين الحق والباطل وبين الصدق والكذب فى المقال، وبين

القبيح والجميل فى الفعال، وإصلاح الشهوات بالعفة حتى تسلس للجود والمواساة المحمودة بقدر الطاقة، وإصلاح الحمية: بإسلاسها حتى يحصل الحِلم وهو كف النفس عن قضاء وطر الغضب، وتحصل الشجاعة وهى كف النفس عن الخوف وعن الحرص المذمومين.

وبإصلاح القوى الثلاث يحصل للنفس العدالة والإحسان وهذه جماع المكارم، وطهارة النفس وحسن الخلق الممدوح؛ يقول النبى ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا وألطفهم بأهله» [رواه الترمذى والنسائى والحاكم].

وبهذا تكون قيمة النفس الإنسانية بما يزينها من أخلاق بعد الإيمان، وكل متعاطٍ لفعل من الأفعال النفسية فإنه يتقوى فيه بالازدياد منه إن خيرا فخير وإن شرا فشر، فباحتمال صغار الأمور يمكن احتمال كبارها، وباحتمال كبارها يستحق الحمد والثناء كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه: «الإيمان يبدو كنكتة بيضاء فى القلب كلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، وإذا استكمل العبد الإيمان ابيض قلبه كله، وإن النفاق يبدو لمظة[1] سوداء، وكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله».

والإنسان يكمل فى الفضيلة بأربع درجات: اثنتين فى الاعتقاد وهما: أن يعتقد الجميل ويجعل اعتقاده عن براهين واضحة وأدلة قاطعة؛ لا عن شبهات وإقناعات متداعية.

واثنتين فى الفعل وهما: أن يترك العادات السيئة فيجعلها بحيث

---

(١) لمظة: نكتة فى القلب.

يبغضهـا فيجتنب الرذيلـة ويتوصل إلى الفضيلـة، وأن يتعود العادات الحسـنة فيجعلها بحيث يؤثرها ويتنعم بها كما قال ﷺ: «وجُعلت قرة عينى فى الصلاة» رواه أحمد والنسائى والحاكم.

وغايـة الفاضل فـى الفضيلة أن تقع منه الفضائـل أبدا من غير فكر ولا رويـة؛ لغلبة قواها عليه، وبُعد ما ينافيها منه كالصانع الحاذق فى صنعتـه، ومن أهـم الفضائل التى دعا إليها الشـافعى فى هذه الأبيات الصبر على الفقر والتجمل أمام الناس، يقول الشاعر:

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

وذلك صبر نفسى وبه تتعلق الفضيلة، والصبر نوعان: صبر عن تناول مشتهى، ويقال له العفة وإليه أشار الشافعى فقال:

صن النفس واحملها على ما يزينها تعش سالما والقول فيك جميلُ

وصبر على تحمل مكروه أو محبوب وتختلف أسماؤه باختلاف مواقعه فإن كان – مثلا – فى الإمسـاك عن فضولات العيش سمى قناعة وزهدا وضده الشـره والحرص، وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سـعة الصدر وضـده ضيق الصدر والضجر والتـبرم... ويكون الصبر عاما كما فى قوله تعـالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾[1] فذكـر عز وجل أنهم يصبرون فى البأساء أى فى الفقر، والضراء أى فى المصيبة، وحين البأس أى فى المحاربة.

واعلم أن للبلايا نهايات معلومة الوقت عند الله عز وجل، فلابد للمبتلى

(١) سورة البقرة الآية ١٧٧.

مـن الصـبر إلى أن ينقضى أوان البـلاء، فإن تقلقل قبـل الوقت لم ينفع التقلقـل، كما أن المادة إذا انحـدرت إلى عضو فإنها لا ترجع، فلابد من الصبر إلى حين البطالة، فاستعجال زوال البلاء مع تقدير مدته لا ينفع.

فالواجب الصبر وإن كان الدعاء مشروعا، ولا ينفع إلا به، إلا إنه ينبغى للداعى ألا يستعجل؛ بل يتعبد بالصبر والدعاء والتسليم إلى الحكيم.

وليـس فى الوجود شـىء أصعب من الصبر، إمـا عن المحبوب وإما علـى المكروهـات. وخصوصا إذا امتد الزمان أو وقـع اليأس من الفرج، وتلـك المدة تحتاج إلى زاد يقطع به السـفر... فالجزع لا ينفع صاحبه؛ بل يفضحه، فليس فى طريق الصبر نفقة سواه، فينبغى للصابر أن يشغل نفسه بالدعاء والتفكر، ويقطع بهما ساعات ابتلائه.

وسـبحان المتصرف فـى خلقه بالإذلال والابتـلاء ليبلو صبرهم ويظهر جواهرهم بالابتلاء ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[1].

هـذا آدم – عليه السـلام – تسـجد له الملائكة ثم بعـد قليل يخرج من الجنة.

وهذا نوح – عليه السـلام – يُضرب حتى يُغشـى عليه ثم بعد ذلك ينجو فى السفينة ويهلك أعداؤه.

(١) سورة آل عمران الآيات ١٤٠ – ١٤٢.

وهذا الخليل إبراهيم – عليه السلام – يُلقى فى النار ثم بعد قليل يخرج إلى السلامة.

وهذا الذبيح إسماعيل يضطجع مستسلما ثم يَسلم ويبقى المدح.

وهذا يعقوب – عليه السلام – يذهب بصره بالفراق ثم يعود بالوصول.

وهذا الكليم – عليه السلام – يشتغل بالرعى ثم يرقى إلى التكليم.

وهذا نبينا محمد ﷺ يقال له بالأمس اليتيم، ويتقلب فى عجائب يلاقيها من الأعداء تارة ومن مكائد الفقر أخرى، وهو أثبت من جبل حراء، ثم لما تم مراده من الفتح وبلغ الغرض من أكبر الملوك وأهل الأرض نزل به ضيف النُقلة[1] فقال: واكرباه.

فمن تلمح بحر الدنيا، وعلم كيف تتلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام لم يستهول نزول البلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء.

ونجد الصبر فى معظم الأبيات السابقة إما ظاهرا وإمَّا خفيا فهو فى الصبر على الفقر والفاقة وقلة الزاد:

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد عسى نكبات الدهر عنك تزولُ

وهو فى الصبر عن الهوى والهوان وهما معا فى فعل الخنا والزنا:

عِفوا تعف نساؤكم فى المحرم وتجنبوا ما لا يليق بمسلم

وهو فى الصبر عن سؤال الناس والقناعة بالقوت القليل:

قنعت بالقوت من زمانى وصنت نفسى عن الهوانِ

وهو فى الصبر عن التحدث بما لا يليق والخوض فى عورات الناس:

---

(١) ضيف النقلة: ملك الموت.

فلا ينطقن منك اللسان بسوأة فكلك سوءات وللناس ألسنُ

ثم أخيرا هو فى الزهد فى الدنيا والتقلل من كل زائل:

نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا

يقول ابن الجوزى فى حديث عن الصبر عن الهوى: «قرأت سورة يوسف - عليه السلام - فتعجبت من مدحه- عليه السلام- على صبره، وشرح قصته للناس ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملت خبيئة الأمر، فإذا هى مخالفة للهوى المكروه، فقلت: واعجباه لو وافق هواه من كان يكون؟

ولما خالفه صار أمرا عظيما تضرب الأمثال بصبره ويفتخر على الخلق باجتهاده، وكل ذلك كان بصبر ساعة، فياله عزا وفخرا، أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب.

فتلمحوا رحمكم الله عاقبة الصبر ونهاية الهوى.

فالعاقل من ميّز بين الأمرين: الحلوين والمرين، فإن من عدل ميزانه ولم تمل به كفة الهوى رأى كل الأرباح فى الصبر، وكل الخسران فى موافقة النفس، وكفى بهذا موعظة فى مخالفة الهوى لأهل النهى»[1]، وللرغبة جمحات فكيف يُكبح جماحها؟

فيقول الحكيم: ينبغى أن يشتغل بذكر الموت ويُحذر من الهوى، ثم يُنظر فى عواقب الأمور فينبغى أن يُقدر الإنسان الآفات وإن رأى الدنيا مقبلة لجواز أن تنقطع به الدنيا، وينبغى كذلك للمعافى أن يُعد للمرض،

(١) صيد الخاطر: ص ٢٥٢، ٢٥٣ تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة. ط ١٩٧٩م.

وللقوىِ أن يتهيأ للهرم، وبالجملة فإن النظر فى العواقب وفيما يجوز أن يقع شـأن العقلاء، أما النظر فى الحالة الراهنة فحسـب فحالة الجهلة الحمقى مثل أن يرى لذة عاجلة وينسى ما تجنى عواقبها.

كما ينبغى لعاشـق الذنب أن يـرى زوال اللذة وبقاء إثمها، فلو رأى اللـص قطع يده لهان عنده المسـروق، فمن رأى كذلـك المعصية بعينى الشهوة فما رآها؛ إذ فيها من العيوب ما شئت، ثم ثمرتها عقوبة آجلة، وفضيحة عاجلة.

فكـم من الأمـور القبيحة التى تتعلق بالزنا والتـى لا تفى لذة لحظة بمعشـار عشـرها، منهـا هتك العرض بـين الناس، وكشـف العورات المحرمة، وخيانة المسلم للمسلم فى زوجته إن كانت متزوجة، وفضيحة المزنى بها وهى كأخت له أو بنت، وأما سـخط الحق سـبحانه فمعلوم ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[1].

وقـال ﷺ: «ما من ذنب بعد الشـرك أعظم عنـد الله تعالى من نطفة وضعها رجل فى رحم لا تحل له» ومن له فهم فليعلم أن المراد من النطفة إيجـاد الموحدين، ولولا تركيب الشـهوة لم يقع الوطء، وإنما الشـهوة تغطى عين الناظر ليحصل الولد أصلا فهى عارض، فمن طلب الشـهوة ونسى جنايته بالزنا فما رأى الأشياء على ما هى.

وقد نسـى أكثر الخلق مآلهم ميلا إلى عاجل لذاتهم، فأقبلوا يسامرون الهوى ولا يلتفتون إلى مشاورة العقل، فلقد باعوا بلذة يسيرة خيرا كثيرا، واسـتحقوا بشهوات مرذولة عذابا عظيما..فإذا نزل بأحدهم الموت قال: ليتنى لم أكن، ليتنى كنت ترابا، فيقال له: الآن؟!

(١) سورة الإسراء الآية ٣٢.

فواأسـفى لفائت لا يمكن اسـتدراكه، ولمرتهن لا يصح فكاكه، ولندم لا ينقطع زمانه، ولمعذَب عز عليه إيمانه بالله ! !

فمـا نفعت العقول إلا من يلتفت إليها ويعول عليها، ولا يمكن قبول مشوراتها إلا بعزيمة الصبر عما يُشتهى.

وفـى الحديث: «إن مما أدرك الناس مـن كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [أخرجه البخارى وابن ماجه].

فالحياء كان ولا يزال ميزانا تُوزن به الأعمال وتُعرف به قيم الرجال، وتفاوتهـم فى الإيمان، فمن اشـتد حياؤه فقد عظم شـأنه بين المؤمنين وارتفعت درجاته فى أعلى عليين.

فأهـل الحياء هم أهـل الجنة؛ لأن حياءهم حـال بينهم وبين الكفر بالله؛ لأنه ليس من الحياء فى شـىء أن يعرف الإنسـان أن الله خلقه من العدم ورباه على موائد الفضل والكرم ثم هو يكفر به ويجحد نعمه.

وحال الحياء بين عباد الله وبين الشـرك فمن عرف أن الله هو الذى يجزى على الأعمال الصالحة لم يشـرك معـه فيها غيره، ثم هو يحول بينهم وبين المعاصى كلها.

ثم يتحدث الشافعى عن آفة عظيمة من آفات اللسان، ألا وهى الغيبة والتعرض لسـوءات الناس ونبش أعراضهم وفـى الحديث: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام» [رواه البخارى].

وقال ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسـلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومـن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته» [رواه ابن أبى الدنيا وأبو داود بإسناد جيد].

وفـى حديث آخر: «إياكـم والغيبة؛ فإن الغيبة أشـد من الزنا، إن الرجل قد يزنى ويشرب ثم يتوب ويتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه» [رواه ابن أبى الدنيا].

وقال على بن الحسـين رضى الله عنهما: إياك والغيبة فإنها إدام[1] كلاب الناس.

ومعنى الغيبة: أن تذكر أخاك الغائب بما يكرهه إذا بلغه، سواء كان نقصـا فى بدنـه كالعمش والحول والعور والقرع، أم فى نسـبه كقولك: أبوه نبطى أو هندى أو فاسـق أو خبيث، أم فى خُلقه كقولك: هو سيئ الخُلق بخيل متكبر، أم فى ثوبه كقولك: هو طويل الذيل، واسع الكم، وسـخ الثياب، والدليل على ذلك أن النبى ﷺ سئل عن الغيبة، فقال: «ذكرك أخـاك بما يكره»، قـال: أرأيت إن كان فى أخـى ما أقول يا رسـول الله؟ قال: «إن كان فى أخيك ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» [رواه مسلم].

وكل ما يُفهم منه مقصود الذم فهو داخل فى الغيبة سـواء كان بكلام أم بغيره؛ كالغمز والإشارة، والكتابة بالقلم؛ فإن القلم أحد اللسانين.

وهذا هو ما أشار إليه الشافعى بقوله:

وعينـاك إن أبـدت إليـك معائبـا فدعها، وقل يا عينُ للناس أعينُ

والمستمع للغيبة شريك فيها، ولا يتخلص من إثم سماعها إلا أن ينكر بلسـانه، فإن خاف فبقلبه وإن قدر على القيـام، أو قطع الكلام بكلام آخر لزمه ذلك. وقد رُوى عن النبى ﷺ قوله: «من أذل عنده مؤمن وهو

(١) الإدام: الطعام يؤكل مع الخبز.

يقدر أن ينصره أذله الله عز وجل على رؤوس الخلائق» [رواه الطبرانى] وضُعف الحديث.

وقال ﷺ: «من حمى مؤمنا من منافق يعيبه بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم» رواه أبو داود، وفى روايته: «من حمى مؤمنا من منافق أذاه قال: بعث الله ملكا يحمى لحمه يوم القيامة من نار جهنم، ومن رمى مسلما بشىء يريد شينه به حبسه الله على جهنم حتى يخرج مما قال».

وكفى قول الشاعر الحصيف:

فإن عبت قوما بالذى فيك مثله ... فكيف يعيب الناس من هو أعورُ
وإن عبت قوما بالذى ليس فيهم ... فذلك عند الله والناسِ أكبرُ

وإلى هذا أشارت أبيات الشافعى:

إذا رمت أن تحيا سليما من الردى ... ودينك موفور وعرضك صيّنُ
فلا ينطقن منك اللسان بسوأةٍ ... فكلك سوءات وللناس ألسن
وعيناك إن أبدت إليك معائبا ... فدعها، وقل يا عين للناس أعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى ... ودافع ولكن بالتى هى أحسن

* * *

وفى نهاية الأمر يحث الشافعى على القناعة فيقول:

أمتُ مطامعى فأرحت نفسى ... فإن النفس ما طمعت تهونُ
وأحييت القنوع وكان ميتا ... ففى إحيائه عرضٌ مصون
إذا طمع يحل بقلب عبدٍ ... علته مهانة وعلاه هون

الآدمى موضوع على مطلوبات تُشتت الهم؛ العين تطلب المنظور، واللسان يطلب الكلام، والبطن يطلب المأكول، والفرْج المنكوح، والطبع يحب جمع المال.

وقد أُمرنا بجمع الهم لذكر الآخرة، والهوى يشتته.

فكيف إذا اجتمعت إليه حاجات لازمه من طلب قوت البدن وقوت العيال؟ وأى هم يجتمع خصوصا إذا أخذه الشره فى صوره فيمضى العمر فينهض من الدكان إلى القبر؟

وكيف يحصل العلم أو العمل أو إخلاص القصد أو طلب الفضائل؟

فمن رُزق يقظة فينبغى أن يصابر لنيل الفضائل، وليقلل الهم على مقدار ما يمكنه من حذف العلائق جهده ليجمع الهم فى ذكر الآخرة فإن لم يفعل أخذ فى غفلته وندم فى حفرته.

وأقبح الأحوال حال عالم فقيه كلما جمع همه لذكر الآخرة شتته طلبُ القوت للعائلة. وربما احتاج إلى التعرض للظلمة وأخذ الشبهات، وبذل الوجه فيلزم هذا التقدير فى النفقة، وإذا حصل له شىء من وجه دبر فيه.

ولا ينبغى أن يحمله قصر الأمل على إخراج ما فى يده فقد جاء فى الحديث: «لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس» [أخرجه البخارى ومسلم].

وأذل من كل ذل التعرض للبخلاء والأمراء.

ومعنى الحديث السابق: لو أنك تركت ورثتك أغنياء خير لك ولهم من أن يكونوا فقراء يسألون الناس بأكفهم فتكون المسألة مَذلة لهم فى الدنيا والآخرة، والمراد بالغنى هنا: الكفاية وليس المراد كثرة المال فقد لا يتوفر لهم

ذلك، فمن وجد فى الحياة ما يكفيه من المأكل والمشرب والملبس والمسكن وغير ذلك مما يوفر له المعيشة الطيبة فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها.

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال والجاه.

وفى الجملة فإن الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم بالمال الحلال فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد. وينبغى أن يعول فى ذلك على ثلاث علامات: الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[1]، وهذه علامة الزهد فى المال.

الثانى: أن يستوى عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد فى الجاه.

الثالث: أن يكون أنسه بالله والغالب على قلبه محبته وحلاوة الطاعة.

فأما محبة الدنيا ومحبة الله تعالى فهما فى قلب العبد كالماء والهواء فى القدح إذا دخل الماء خرج الهواء فلا يجتمعان.

قيل لبعضهم: إلام أفضى بهم الزهد؟ قال: إلى الأنس بالله.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها (أى التى تمشطها) والزاهد يسخم[2] وجهها وينتف شعرها ويخرق ثوبها، والعارف مشتغل بالله تعالى عنها.

* * *

(١) سورة الحديد الآية ٢٣.

(٢) سخم: سوّد.

بهذه الأخلاق: القناعة والزهد والعفة وصيانة اللسان والجوارح عن انتهاك الأعراض يسود المرء قومه ويرضى ربه ويفلح فى دنياه وآخرته.. وبهذا نبه الشافعى وساد وصار علما من أعلام الأمة الإسلامية.

وهكذا تكون زينة المرء بالأخلاق الحسنة وليس بملبسه أو مظهره:

علىّ ثياب لو يُباع جميُعها ... بفلسٍ لكان الفِلس منهن أكثرا
وفيهن نفسٌ لو تقاس ببعضها ... نفوسُ الورى كانت أجلَّ وأكبرا

* * *

الحض على الترحال

ما فى المُقام لذى عقل وذى أدب ... من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضا عمن تفارقه ... وانصب[1] فإن لذيذ العيش فى النصب
إنى رأيت وقوف الماء يفسده ... إن ساح طاب وإن لم يجر لم يطب
والأسْدُ لولا فراق الأرض ما افترست ... والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والشمس لو وقفت فى الفُلك دائمةً ... لملّها الناس من عُجم ومن عرب
والتبر[2] كالترب ملقى فى أماكنه ... والعود فى أرضه نوع من الحطب
فإن تغرَّب هذا عز مطلبه ... وإن تغرب ذاك عز كالذهب

* * *

(١) انصب: فعل أمر من نصب نصْبا: جد فى الأمر واجتهد فيه.

(٢) التبر: ما كان من الذهب غير مضروب، وبعضهم يقول التبر على الفضة أيضا.

سأضرب فى طول البلاد وعرضها أنـال مـرادى أو أمـوت غـريبـا
فإن تلفت[1] نفسى فلله درُّهـا وإن سلمـت كـان الرجـوع قريبـا

* * *

تغرب عن الأوطان فى طلب العلى وسافر ففى الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتسـاب معيشـة وعلـمٌ وآداب وصحبـة ماجـد[2]

* * *

لقد أصبحت نفسى تتوق إلى مصر ومن دونها قطع المهَامِه[3] والقفر[4]
فوالله مـا أدرى أللفـوز والغنـى أسـاق إليهـا أم أسـاق إلى القبـر؟

* * *

ارحل بنفسك من أرضٍ تُضام بها[5] ولا تكن من فراق الأهل فى حُرَقٍ[6]
فالعنبر[7] الخام روث[8] فى مواطنه[9] وفى التغرب[10] محمول على العنق[11]

(١) تلفت: هلكت.
(٢) ماجد: من مجد الرجل صار كريما ذا خلق طيب، والماجد: كريم النفس طيب الخلق.
(٣) المهامه: المفازة البعيدة والصحراء القاحلة ومفردها مَهْمَة.
(٤) القفر: الصحراء التى لا نبات فيها ولا ماء، والجمع قفار.
(٥) تُضام: تُظلم وتُقهر وتُخذل.
(٦) حُرَقٍ: شوق ولهفة.
(٧) العنبر: طيب يستخرج من بطن الحوت بعد موته.
(٨) روث: فضلات.
(٩) موطنه: مكانه.
(١٠) التغرب: الترحال والسفر.
(١١) العنق: الرقبة.

والكحل نوع من الأحجار تنظره في أرضه وهو مرمى على الطرق
فإن تغرب حاز الفضل أجمعه فصار يُحمل بين الجِفن[1] والحدق[2]

شرح الأبيات

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «سافروا تربحوا، وصوموا تصحوا، واغزوا تغنموا» رواه أحمد، وذكره السيوطى فى الجامع بلفظ: «سافروا تصحوا، واغزوا تستغنوا» وحسنه.

سيدنا رسول الله ﷺ معلم وطبيب ملهم، وحكيم تفجرت من قلبه ينابيع الحكمة؛ وصاياه أصول للأخلاق والمُثل العليا، قواعد عامة للسلوك الرشيد، ومنهج للحياة الفاضلة فى جميع مظاهرها. وهذه الوصية واحدة من تلك الوصايا الجامعة النافعة التى من شأنها أن توضع موضع الاعتبار والتنفيذ.

قوله ﷺ: «سافروا تربحوا» ترجمة موجزة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[3].

أى: من يغادر محل إقامته إلى أرض الله الواسعة غازيا أو طالبا للعلم، أو ساعيا للرزق، و نحو ذلك من المطالب المشروعة، فإنه سيجد فى الأرض التى هاجر إليها خيرا يرغم به حُسّاده، ومالاً وفيرا يقيم أوَدَه، وعلما نافعا يُقوِّم به خلقه، ويصلح به أمور دينه ودنياه.

(١) الجفن: جفن العين، والجفن أيضا (ليس هنا): غِمد السيف.

(٢) الحدق: حدقة العين سوادها الأعظم والجمع حَدَق وحِدَاق، والتحديق: شدة النظر.

(٣) سورة النساء الآية ١٠٠.

ومـن يخرج من بيته بنية الهجـرة إلى الله تعالى ثم يدركه الموت فقد ثبت أجره عند الله عز وجل؛ لأن الأعمال بالنيات.

والهجرة والسـفر هنا بمعنى واحد، ويختلف الحكم فى السفر باختلاف النية- وهى القصد المقترن بالفعل- وباختلاف الغاية- وهى التى من أجلها كان القصد- فالقصد يكون فى أول العمل، والغاية تكون فى آخره.

فأحيانا يكون السـفر واجبا؛ وذلك لتأدية فريضة الحج، وطلب العلم إذا لم يكن فى البلد معلم، وطلب الرزق إذا ضاقت عليه سبل العيش فى بلده، كما يكون السفر واجبا إذا خشى على نفسه الفتنة.

ويكون مسـتحبا إذا كان القصد منه طلب النظر فى آيات الله الكونية أو طلب العافية؛ فإن فى السـفر ترويحا للنفـس وتقوية للبدن، ويكون مباحـا فيما سـوى ذلك، كما يكون حرامـا إذا كان فى معصية، والأمر بالسـفر فى هذا الحديث ليس للوجوب مطلقا؛ ولكنه للنصح والإرشـاد والتوجيه والترغيب.

والسفر لفظ يُطلق ويُراد به الانتقال والتحول من بلد إلى بلد فى مسافة تُقصـر فيها الصلاة وهى مُقـدرة عند جمهور الفقهـاء بنحو من ثمانين كيلو مترا.

والهجرة كالسـفر - كما قلنا - إلا إننا نلمح فيها معنى البعد الشاسع بـين البلـد التى يخرج منها والبلد التى يريد أن يرحل إليها لما فيها من معنى الهجران وهو البعد الذى لا يمكن الإنسان من العودة بيسر وسهولة.

وقد سُمى السـفر سفرا؛ لأن الإنسـان إذا خرج من بلده يكون سافرا أى ظاهرا تراه الأعين، من قولهم: أسفر الصبح أى ظهر ووضح، ثم إن

الهجرة كما تُطلق على الترك والتحول تطلق على الخصام وقطع الوصال ومنه قوله ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث» أى لا يحل له خصامه وقطع حبال وده.

وقد علّق النبى ﷺ الربح على السفر مع أنه يحصل بالسفر وغيره؛ لأن السفر مظنة الربح الكثير والخير الوفير، كما جاء فى رواية أخرى للحديث: «سافروا تستغنوا» أى: سافروا لطلب الغنى، فالسين والتاء للطلب، أو سافروا تجدوا الغنى على أن السين والتاء للتوكيد. والربح ضد الخسران، وهو دنيوى وأخروى، والنوعان متلازمان حينا ومنفصمان حينا، فمن أراد الدنيا خسر الدنيا والآخرة، ومن أراد الآخرة ربحهما معا، كما قال الشافعى رضى الله عنه:

فإن تلفت نفسى فلله دَرها[1] وإن سلمت كان الرجوع قريبا

ومن هنا يتبين لنا من قوله ﷺ: «سافروا تربحوا» أى تربحوا فى الدنيا والآخرة إن كان القصد من سفركم الطاعة.

أما إن كان القصد فيه المعصية فلا ربح فيه مهما حصّل المسافر فى سفره من مال وغيره من متاع الدنيا؛ لأنه لما أراد الدنيا وضرب صفحا عن الآخرة خسر الدنيا والآخرة معا؛ ما لم يتب من ذنبه ويصلح من شأنه ويجدد العهد مع ربه على السمع والطاعة فى الحِل والترحال وفى السراء والضراء والشدة والرخاء.

والشافعى فى أبياته السابقة يحث على السفر ويرغب فيه ويذكر

---

(١) درّها: لله تعالى دَره: أى عمله، ولله دره من رجل.

فيــه فوائد كثيرة؛ مســتدلا على ذلك بما يراه النــاس من مظاهر الطبع والطبيعة، وهو فقيه نابه قد جّرب الحياة وعركها وأحب الأســفار فكان حــالاً مرتحلا فى طلب العلم ونشــره لهذا كان قولــه هو الصواب الذى لا معدل عنه لموافقته الكتاب والسنة كما تقدم بيانه.

ففى الأســفار الربح والصحة، وهما نعمتان عظيمتان جامعتان لســائر النعــم بعد الإيمان، والربح كلمة جامعــة لما يحصل عليه المرء من الرزق الواسع والعلم الغزير، والصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يعرفها إلا من فقدها، وهى أيضا كلمة جامعة لعافية الأبدان والعقول والأرواح.

فالمسافر يجد من خلال سفره ما يروح به عن نفسه ويجدد به نشاطه ويغــذى بــه فكره ويزداد به إيمانا مع إيمانــه لكثرة ما يرى من الآيات الدالــة على وحدانية الله تعالى وعظيــم قدرته عز وجل؛ مع ما يحصل عليه من رزق واســع وخير وفير يحفظ به دينه وعِرضه، ويمتع به نفسه بالطيبات التى يستطيع أن يحصل عليها بما لديه من مال.

ولا شــك أن من ســافر إلى حيث شاء الله أن يسافر يكون أفضل حالا مــن المقيم بدرجات فى الخبرة والمعرفــة والثقافة والعلم بأحوال البيئات والمجتمعات المتحضرة وغير المتحضرة.

ولهذا حث الله عز و جل على الســير فــى الأرض والنظر فيما تحتويه من آثار جلية وأسرار خفية فقال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾[1].

(١) سورة يونس الآية ١٠١.

وقال عـز من قائـل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾[1].

إن الحياة حركة، والحركة فى موضع واحد كسل وخمول.

وقد اسـتعاذ النبى ﷺ من الكسل والخمول وأمر أصحابه أن يتعوذوا منهمـا ومما يتصـل بهما فقال: «اللهم إنى أعـوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال».

ومن تعود الكسـل ومال إلى الراحة فقد الراحة (فحب الهوينا يُكسب النصـب)، وقد قيـل: إن أردت ألاّ تتعب فاتعـب لئلا تتعب، وقيل: إياك والكسل والضجر فإنك إن كسلت لم تؤد حقا وإن ضجرت لم تصبر على الحق، قال الشاعر:

إن التوانـى أنكـح العجـز بنته ... وساق إليها حين أنكحها مهرا
فراشا وطيئا ثم قال لهـا اتكـى ... فقصرا كما لا شك أن تلدا الفقرا

وقال يزيد بن المهلب: ما يسرنى أنى كفيت أمر الدنيا كله لئلا أتعود العجز؛ ولأن الفراغ يبطل الهيئات الإنسانية، فكل هيئة؛ بل كل عضو ترك استعماله يبطل ولذلك وضعت الرياضات فى كل شىء؛ وتأمل حال مريم- عليها السـلام- وقد جعل لها من الرطب الجنى ما كفاها مؤونة الطلـب- وفيه أعظم معجزة- فإنه لم يخلها من أن يأمرها بهز النخلة فقال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2].

---

(١) سورة الملك الآية ١٥.

(٢) سورة مريم الآية ٢٥.

وإذا تأملت قوله ﷺ: «سافروا تغنموا» ونظرت إليه نظرا عاليا علمت أنه حثك على التحرك الذى يثمر لك جنة المأوى ومصاحبة الملأ الأعلى؛ بل مجاورة الله تعالى، وذلك يحتاج إلى أربعة أشياء:

١- معرفة المقصود المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾[١].

٢- معرفة الطريق المشار إليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[٢].

٣- وتحصيل الزاد المبلغ المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣].

٤- والمجاهدة فى الوصول إليه كما قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾[٤].

فبهذه الأشياء يأمن السالك الغرور الذى خوفه الله منه فى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[٥].

وهذه من المعانى التى دونها هول العوالى، ولا ضير لمن رامها أن يتذرع بالصبر، فقد أصاب من قال:

فقل لمرجي معالي الأمور بغير اجتهاد رجوت المُحالا

(١) سورة الذاريات الآية ٥٠.

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٨.

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٧.

(٤) سورة الحج الآية ٧٨.

(٥) سورة فاطر الآية ٥.

واعظ الناس

يا واعظ الناس عما أنت فاعلُه ... يا من يُعَدُّ عليه العمرُ بالنفَس
احفظ لشيبك من عيب يدنسه ... إن البياض قليل الحَمل للدنس
كحامل لثياب الناس يغسلها ... وثوبه غارقٌ فى الرجس والنجس
تبغى النجاة ولم تسلك طريقتها ... إن السفينة لا تجرى على اليَبس
ركوبك النعش ينسيك الركوب على ... ما كنت تركب من بغل ومن فَرَس
يوم القيامة لا مال ولا ولد ... وضمة القبر تنسى ليلة العرس

* * *

شرح الأبيات

يقول الشاعر:

لا تلم المرءَ على فعله ... وأنت منسوب إلى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله ... فإنما دلّ على جهله

وقيل لعيسى ابن مريم: من أدبك؟ فقال: «ما أدبنى أحد، رأيت جهل الجاهل فتجنبته».

وقال آخر: من نظر فى عيوب فأنكرها ثم رضيها لنفسه فذاك الأحمق حقا.

وقال ابن المقفع: من نظر فى عيبه استعظم زلة نفسه، ومن سل سيف البغى قُتل به.

يقـول جل شـأنه: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

وقال سـبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون (خلصاء الأنبياء وأصفياؤهم) وأصحاب يأخذون بسـنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُفُ من بعدهم خُلُوفٌ[3] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[4] [رواه مسلم].

وعـن أبى زيد أسـامة بـن زيد بن حارثة- رضـى الله عنهم- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق أقتاب[5] بطنه فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحا[6]، فيجتمع إليـه أهل النار فيقولون: يا فـلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عـن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه» [متفق عليه].

(١) سورة البقرة الآية ٤٤.
(٢) سورة الصف الآية ٢- ٣.
(٣) خلوف: جمع خلف بإسكان اللام وهو الخالف بشر.
(٤) خردل: حبة صغيرة جدًا فى قدر السمسمة أو أصغر.
(٥) تندلق أقتاب: تخرج الأمعاء وواحدها قِتْبٌ.
(٦) الرحا: الطاحون.

أما قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]. فمعناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر- وهو جماع الخير- أن تنسوا أنفسكم فلا تأتمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصّر فى أوامر الله؟ قال قتادة: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه ويخالفون، فعيرّهم الله عز وجل، وقال أبو الدرداء: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس فى ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا. وليس المراد ذم أهل الكتاب على أمرهم بالبر؛ بل المراد ذمهم على أمرهم به وتركهم له فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾[2] فكلٌ من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر؛ قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شىء، ما أمر أحدا بمعروف ولا نهى عن منكر، فالصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه مع المجاهدة للنفس باستمرار.

وفى الحديث: «مثل العالم الذى يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضىء للناس ويحرقَ نفسه» [رواه الطبرانى فى الكبير].

وقال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرِى بى على قوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك من أهل الدنيا

(١) سورة البقرة الآية ٤٤.

(٢) سورة هود الآية ٨٨.

ممـن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسـون أنفسـهم وهم يتلـون الكتاب أفلا يعقلون؟ « [رواه أحمد فى مسنده].

فمن آداب النصيحة أن يعمل الناصح بالنصيحة التى يوجهها للناس لعل الله أن ينفع بها.. فخطاب الشافعى فى الأبيات السابقة موجه إلى كل واعظ وناصح: إذا أردت أن ينفع الله بدعوتك ونصيحتك فاعمل بها أنت أولا:

يا أيهـا الـرجل المعلِم غيـره هـلا لنفسـك كـان ذا التعـليـم
ابدأ بنفسك فانهـا عن غـيهـا فإذا انتهـت عنـه فـأنت حكيـم

فنهـىُ الواعظ عن الفعـل مع إتيانه له من أكبر القواصم التى يتعرض لها فى الحياة؛ أن يتكلم بكلام جميل وفـعـله قبيح فـيكذب فعلُه قوله: فلا يتقبل الناس منه ولا يجعل الله لكلامه تأثيرا ولا نورا، ومن المعروف عند علماء التربية أن التربية بالقدوة الحسنة هى أمثل الوسائل فى تقويم اعوجاج النفوس البشرية وتوجيهها للحق.

وأمـا الحديث عن الرجل الذى يـدور فى النار تندلق أقتابه فقد علق عليه بعض العلماء فقال: «ما دخل النار بسـبب أمره ولا بسبب نهيه؛ إنما دخل النار بسـبب مخالفته أمـره ونهيه، ولذلك تجد بعض الناس عنده ورع بارد بالدعوة؛ صامت مظلم، يقال له: مالك لا تدعو؟ فيقول: أخشى من صاحب الرحا فى نار جهنم، أخشى أن أدور بالرحا!!».

إن الحديـث لام هذا الرجل؛ لأنـه خالف، أما إذا أمر وائتمر ونهى وانتهى فهو مأجور. وإذا وقع الواعظ فى الخطأ عليه أن يسدد ويقارب، فبعض الناس يظن أن الداعية عليه أن يكون معصوما، أولا يذنب أبدا، كأن الداعية إذا وقع فى خطأ بسيط ارتكب الجرائم وخرج من المِلة!!

ولذلك خطأ الدعاة مُضخم وحسناتهم مصغرة... قال عامر الشُعبى:
«والله الذى لا إله إلا هو لو أحسنت تسعا وتسعين لنسوها ولعدوا علىَّ غلطة واحدة!».

تريد مهذبا لا عيب فيه وهل طيب يفوح بلا دخانِ

إذا لمن العصمة؟ لمحمد ﷺ، والدعاة ليسوا معصومين، فقد يخطئون لكنهم يراجعون خطأهم ويتوبون إلى الله الواحد الأحد.

ومن حديث الشافعى رحمه الله – عن أصل من أصول الوعظ أو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نعلم أن ذلك فرض على كل مسلم كما ورد فى الحديث الشريف: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [رواه مسلم].

هذا.. وإنما يجب إزالة المنكر باليد إذا لم يخف على نفسه ضررا وإلا فلا يجب بل يُسن ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1].

لأنه مخصوص بغير ما فيه إزالة المنكر، ولذا كان السلف الصالح يتعرضون لإزالته ولا يبالون بالأخطار كما حُكى أن زاهدا كسر ملاهى مروان بن الحكم فأمر أن يلقى بين يدى الأسود، فأدخلوه فى موضعها فافتتح الصلاة فجاءه جميع ما فى ذلك المكان من الأسود وصارت تلحسه بألسنتها وهو يصلى ولا يبالى بها، فلما أصبح مروان قال: ما فُعل بزاهدنا؟ انظروا هل أكلته الأسود؟ فوجدوها قد استأنست به، فتعجبوا من ذلك وأخرجوه.

(١) سورة البقرة الآية ١٩٥.

فإن لم يستطع التغيير بيده فبلسانه أى فليغيره بقوله : كأن يأمر العاصى بترك المنكر ويوبخه على فعله أو يهدده إن لم يتركه ويتوعده بإحضار أعوان السلطان أو يذكره بالله وبأليم عقابه مع لين أو إغلاظ بحسب ما يقتضيه الحال وأن تكون النصيحة على انفراد كما قال الشافعى:

تغمدنى بنصحك فى انفرادى ... وجنبنى النصيحة فى الجماعة
فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه
وإن خالفتنى وعصيت قولى ... فلا تجزع إذا لم تُعط طاعة

كما أنه يجب أن يوافق كلامه مقتضى الحال وأن يخاطب الناس على قدر عقولهم فقد قال ﷺ: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم».

وقد يبلغ بالرفق ما لا يبلغه بغيره، حُكى أن رجلا أكثر من شرب الخمر بالشام فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فكتب له: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، فترك الرجل الخمر وتاب منها. فالرفق واجب فيمن لا ينفع معه إلا الرفق كالجاهل، ومن يخاف شره وذلك لأنه أقوى فى الامتثال.

«فإن لم يستطع فبقلبه» أى فإن لم يقدر على التغيير بلسانه كأن خاف على نفس أو عضو أو مال أو إثارة فتنة (فبقلبه) أى فلينكره بقلبه بأن ينكره ويكرهه ولا يرضى به ويعزم على أنه لو قدر على تغييره بفعل أو قول لفعل، وهذا فرض عين على كل إنسان لقدرة كل أحد عليه بخلاف اللذين قبله.

(١) سورة غافر الآيات ١- ٣.

وقيل: إن المراد أن ذلك أقل آثار الإيمان وثمراته إذ فيه الكراهة فقط، وهي لا يحصل بها زوال مفسدة المنكر.

ونُقل عن سيدى إبراهيم المتبولى[1]: إن تغيير المنكر باليد يكون للولاة الذين يَضربون ولا يُضربون، وتغييره باللسان للعلماء العاملين فيؤثر زجرهم باللسان فى الفاعل فيرجع عن ذلك المنكر، وتغييره بالقلب على العارفين الذين غلب عليهم شهود احتقارهم نفوسهم أن يكونوا ناهين لغيرهم فيتوجه أحدهم بقلبه إلى الله عز وجل فى تغيير ذلك المنكر فيكف الظالم عن ظلمه وشارب الخمر عن شربه فهذا هو التغيير حقيقة، وأما قول الإنسان: إن هذا منكر لا أرضاه فليس فيه تغيير قلب.

واعلم أنه قد وردت أحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منها قوله ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خيارُكم فلا يستجاب لهم» [رواه الطبرانى فى الأوسط والبزار].

وقال أنس رضى الله عنه: «من سمع أحدا يفعل منكرا ولم ينهه جاء يوم القيامة أصم مقطوع الأذنين».

وقال أبو أمامة - رضى الله تعالى عنه - يُحشر ناس من هذه الأمة على صورة القردة والخنازير بملاصقتهم أهل المعاصى وتركهم نهيهم وهم قادرون.

---

(١) هو إبراهيم بن على بن عمر: صالح مصرى؛ للعامة فيه اعتقاد وغلو، كانت شفاعته عند السلطان والأمراء لا ترد، وله بر ومعروف. له «الأخلاق المتبولية»، ت ٨٧٧ هـ.

ثم إن هذا الحديث قاعدة من قواعد الدين، وظاهره أن الإنسان يلزمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويؤيد أبيات الشافعى السابقة قوله:

المـرء إن كـان عـاقـلا ورعـا أشغله عن عيوب غيره ورعُه
كما العليـل السقيـم أشغلـه عـن وجع الناس كلِهم وجعه

لا كمـا قيـل فى المثل: «يرى القذاة فى عين أخيه ولا يرى الشـوكة فى عينه».

ثم يُذكر الشافعى واعظ الناس ناسى نفسه بالموت وكربه فيقول:

ركوبك النعش ينسيك الركوب على ما كنت تـركب من بغـل ومـن فَرَس
يـوم الـقيـامـة لا مـال ولا ولـد وضمـة القبـر تنسى ليلة العرس

ففـى تذكرته للموت كل التقوى، والتقوى تدخله الجنة وتجعله يعظ نفسـه قبـل الناس بل والتقوى جماع كل فضيلـة كما ورد فى الحديث الذى رواه أحمد: «اسـتحيوا من الله حق الحياء: قلنا: يا رسـول الله: إنا نستحى والحمد لله. قال: ليس ذلك، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى، وليحفظ البطن وما وعى، وليذكر الموت والبِلـى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحيـاة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد اسـتحيا من الله عز وجل حق الحياء»، فقد عرّف الحياء تعريفا تُعرف بـه التقوى بحفـظ الرأس وما حوى من الحواس عـن المعاصى، والبطن وما حوى عن أكل الحرام والشـبهات، وذكر الموت والفناء وبِلى الجسد وتذكـر الآخرة، فمن فعل ذلـك كان حييا تقيا، كما أنه يزهد بقلبه فى الدنيا وما فيها؛ إن أتاه خير شكر وإن أتاه شر صبر وهذا حال المؤمن.

العلم مفخرة الإنسان

اصبر على مُر الجفا[1] من معلم ... فإن رسوب العلم[2] فى نفراته[3]
ومن لم يذق مُر التعلم ساعة ... تجرع[4] ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه ... فكبِّر عليه أربعا لوفاته
وذاتُ الفتى والله بالعلم والتُقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

* * *

العلم مغرس كل فخر فافتخر ... واحذر يفوتك فخر ذاك المغرس
واعلم بأن العلم ليس يناله ... من همه فى مطعم أو ملبس
إلا أخو العلم الذى يُعنى به ... فى حالتيه عاريا أو مُكتسى
فاجعل لنفسك منه حظا وافرا ... واهجر له طيب الرقاد وعبِّس[5]
فلعل يوما إن حضرت بمجلس ... كنت الرئيس وفخر ذاك المجلس

* * *

شكوتُ إلى وكيع[6] سوء حفظى ... فأرشدنى إلى ترك المعاصى
وأخبرنى بأن العلم نور ... ونور الله لا يُهدى لعاصى

* * *

---

(١) مُر الجفا: شدة القسوة والجفا ضد: البر، وأصلها الجفاء ورفعت الهمزة حتى لا يُكسر البيت الشعرى.

(٢) رسوب العلم: سفولة العلم وقلته وضياعه، والمقصود ضياع العلم.

(٣) نفراته: تجافيه وتباعده فى ابتعاد فترات مراجعته وتدارسه.

(٤) تجرع: جرع: بلع بصعوبة، ومنها تجرع الغصص كناية عن نزول العذاب.

(٥) عبِّس: عَبَس: قطب وجهه كناية عن اتخاذ مظهر الجد.

(٦) وكيع: معلم الشافعى.

سهـــرى لتنقيـح العلـوم[1] ألـذ لى مـن وصـل غانيـة[2] وطـيب عِنـاق
وصريـر أقلامـى[3] علـى صـفحاتها أحلـى مـن الـدوكـاء[4] والعُشـاق
وألـذ مـن نقـر الفتـاة لـدُفهـا[5] نقـرى لألقـى الرمـل عـن أوراقـى
وتمايلـى طربـا لحـل عويصـة[6] فى الدرس أشهى من مُدامة ساق[7]
وأبيت سهـران الدجـى[8] وتبيتـه نومـا وتبغـى بعـد ذاك لحـاقى؟!

* * *

علمـى معـى حيثمـا يممـت ينفعنـى قلبـى وعـاء لـه لا بطـنُ صنـدوق
إن كنت فى البيت كان العلم فيه معـى أو كنت فى السوق كان العلم فى السـوق

* * *

إن الفقيـه هـو الفـقيـه بفعلـه ليـس الفقيـه بنطقـه ومقالـه
وكذا الرئيس هو الرئيس بخُلقه ليـس الرئيـس بقومـه ورجالـه
وكذا الغنـى هـو الغنـى بحالـه ليـس الغنـىُ بمُلْكِـه وبمـاله

* * *

---

(١) تنقيح العلوم: استخراج ما فى العلوم من فوائد ظاهرة وباطنة.

(٢) غانية: المرأة المتزينة للرجال، والجمع غوانٍ.

(٣) صرير أقلامى: صوت الأقلام على الأوراق يسمى صريرا.

(٤) الدوكاء: الاختلاط بين القوم فى المجالس، والمقصود الأنس بالناس.

(٥) نقر الدف: ضرب الدف.

(٦) عويصة: مسألة غامضة.

(٧) مُدامة ساق: الخمر وكل ما يُسكر.

(٨) الدجى: الليل.

لا يدرك الحكمة من عُمُره ... يكدحُ فى مصلحة الأهلِ
ولا ينال العلم إلا فتىً ... خالٍ من الأفكار والشغل
لو أن لقمان الحكيم الذى ... سارت به الركبان بالفضل
بُلىِ بفقر وعيالٍ لَما ... فرّق بين التِبن[1] والبقلِ[2]!

* * *

رأيت العلم صاحبُه كريمٌ ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يُعظم أمره القوم الكرام
ويتبعونه فى كل حالٍ ... كراعى الضأن تتبعه السوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عُرِف الحلال ولا الحرامُ

* * *

أخى لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبُلغة[3] ... وصحبة أستاذٍ وطول زمان

* * *

كل العلوم سوى القرآن مشغلةٌ ... إلا الحديثَ وعلمَ الفقه فى الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا[4] ... وما سوى ذاك وسواس الشياطين

(١) التبن: ساق الزرع بعد درسها.

(٢) البقل: كل نبات اخضرت به الأرض، قاله ابن فارس.

(٣) بلغة: ما يُتبلغ به من العيش ولا يفضل، ويعنى هنا: الكفاف والانشغال بطلب العلم وليس بجمع المال الزائد عن الحاجة.

(٤) قال حدثنا: المقصود: حدثنا فلان عن فلان وهو ما يسمى بالعنعنة، ويمكن أن يعنى به علم الحديث فقط أو علوم الدين أجمع وربما دخل فيه علوم اللغة العربية.

شرح الأبيات

الإنسان وإن كان – بكونه إنسانا – أفضل موجود فذلك بشرط أن يراعى ما به صار إنسانا: وهو العلم الحق والعمل المحكم، فبقدر وجود ذلك المعنى فيه يفضل، ولهذا قيل: الناس أبناء ما يحسنون. قالها الإمام على كرّم الله وجهه؛ أى ما يعرفون ويعملون من العلوم والأعمال الحسنة، يقال: أحسن فلان إذا علم وإذا عمل حسنا. أما الإنسان من حيث ما يتغذى وينسل فنبات، ومن حيث ما يحس ويتحرك فحيوان، ومن حيث الصورة التخطيطية فمثل صورة فى جدار!!

والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء: عمارة الأرض المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[1]، وذلك تحصيل ما به تزجية المعاش لنفسه ولغيره، وعبادته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2]. وذلك هو الامتثال للبارى عز وجل فى أوامره ونواهيه، وخلافته المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3]، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالبارى سبحانه على قدر طاقة البشر فى السياسة باستعمال مكارم الشريعة.

ومكارم الشريعة هى: الحكمة والقيام بالعدالة بين الناس، والحِلم والإحسان والفضل، والقصد منها أن تبلغ إلى جنة المأوى وجوار رب العزة تعالى.

(١) سورة هود الآية ٦١.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٣) سورة الأعراف الآية ١٢٩.

وبهذا النظر قيل: «تفقهوا قبل أن تسودوا» رواه البيهقى عن عمر.

تنبيها على أن المرء لا يصلح للسيادة قبل معرفة الفقه والسياسة العامة.

ومكارم الشريعة مبدؤها طهارة النفس باستعمال التعلم واستعمال العفة والصبر والعدالة، ونهايتها التخصص بالحكمة والجود والحلم والإحسان، فبالتعلم يُتوصل إلى الحكمة، وباستعمال العفة يتوصل إلى الجود، وباستعمال الصبر تدرك الشجاعة والحلم، وباستعمال العدالة تصحح الأفعال.

ومن حصل له ذلك فقد تذرع المكرمة المعنية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1]، وصلح لخلافة الله تعالى، وصار من الربانيين والشهداء والصديقين، وهذا ما عناه الشافعى إذ يقول:

وذاتُ الفتى والله بالعلم والتُقى إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتِه

ويكفى العلم شرفا أنه كان فى أول ما بدأ به الوحى على النبى ﷺ إذ جاءه الأمر بأن يقرأ من جبريل – عليه السلام – ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾[2].

إن من كرم الخالق سبحانه أن خلق من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين خلقا يتعلم ويقرأ ورفع هذا العلق (النطفة الدموية الجامدة العالقة بالرحم) إلى درجة الإنسان الذى يُعلّم فيتعلم.. إنها نقلة بعيدة

---

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) سورة العلق الآيات ١– ٥.

بين المنشـأ والمصير.. ولكنّ الله قادر... ولكنّ الله كريم.. ومن ثم كانت هذه النقلة التى تدير الرؤوس!

وإلى جانب هذه الحقيقة- كما يقرر الأستاذ سيد قطب فى تفسيره - تبرز حقيقة التعليم.. تعليم الرب للإنسان «بالقلم»؛ لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا فى حياة الإنسان.. ثم تبرز الآيات مصدر التعليم ... إن مصدره هو الله... منه يستمد الإنسان كل ما علم.. وكل ما يعلم وكل ما يُفتح له من أسرار هذا الوجود ومن أسرار هذه الحياة ومن أسرار نفسه.. فمصدر كل هذا هو الله الذى خلق والذى علم ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].. لقد بدأ الوحى إلى الرسول ﷺ منوها بالقراءة والتعليم بالقلم، ثم أكد هذه اللفتة بسورة القلم إذ أقسم بحرف النون ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾[2] وكان هذا حلقة من المنهج الإلهى لتربية هذه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكونى الضخم الذى قدره لها فى علمه المكنون.

وتتوالى الأحاديث النبوية تترى مؤكدة على أهمية العلم وفضيلة التعلم منها قوله ﷺ: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار وتواضعوا لمن تعلمون منه» [رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف].

وعن معاوية رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «مَن يُرِد الله به خيرا يفقهه فى الدين» [متفق عليه].

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «لا حسد

(١) سورة العلق الآية ٥.

(٢) سورة القلم الآية ١.

إلا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلمها».

والمراد بالحسد هنا الغِبطة وهو أن يتمنى مثله.

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لعلى رضى الله عنه: «فو الله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمْرِ النَّعم»[1] [متفق عليه].

وعن أنس رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «من خرج فى طلب العلم كان فى سبيل الله حتى يرجع» [رواه الترمذى وحسنه].

فعلى المسلم أن ينفذ وصايا الرسول ﷺ خاصة أن الآيات القرآنية تؤيدها – فعليه الصلاة والسلام – وصفه الله بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾[2].

وكفى أن الله تعالى شرط خشيته تعالى بالعلم والمعرفة به: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[3]، ولذا ورد فى الحديث: «أنا أخشاكم لله وأتقاكم له» فإنما يعظم الله من عباده العلماء وذلك لكونهم أعرف الناس بربهم وأتقاهم له. ومن خلال ذلك التفسير الواضح نعرف من هم العلماء الحقيقيون الأحياء بأخلاقهم وآثارهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إنهم العارفون بالله الذين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه من العلم والمعرفة إلا بالتقوى وهى «الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل

(١) حُمْرِ النَّعم: كرائم الجِمال ويؤنث ويذكر وجمعه نُعمان.

(٢) سورة النجم الآيتان ٣ – ٤.

(٣) سورة فاطر الآية ٢٨.

والاستعداد ليوم الرحيل» [من كلام سيدنا علىّ رضى الله عنه]، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

فمن اتقى الله علمه الله ومن علمه الله حق العلم خشى الله، من اتقى الله جعل الله فى قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، ويجعل له فرقانا يفرق به بين الحق والباطل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[2].

وقد ورد فى سيرة الإمام الشافعى أنه كان- وهو صغير- لسرعة حفظه وشدة إتقانه وتوقد ذكائه إذا أراد أن يقرأ فى كتاب وضع كمه الأيسر فوق الصفحة اليسرى حتى لا يحفظها قبل اليمنى، وورد أنه ذات يوم - وهو صغير فى سن السابعة - كان جالسا فى مجلس أستاذه الإمام مالك والإمام يقرأ أحاديث الرسول ﷺ ويقول: عن فلان عن فلان عن صاحب هذا المقام ثم يشير إلى قبر الرسول ﷺ، فرأى - وهو يشير إلى القبر - الشافعى يعبث بثمرة فى الحصير بعد أن بلها بريقه فوق يده.. فحزن الإمام مالك ثم انتظر حتى أنهى درسه ونادى الشافعى فلما جلس بين يديه فسأله عن الأحاديث التى تلاها، فأخذ الشافعى يرددها واحدا بعد الآخر حتى أتم أربعين حديثا كما قرأها مالك.. فسر به شيخه وعرف أنه لم يكن يعبث وإنما كان يسجل بريقه ما يقول الإمام حتى لا ينسى.

ومن أهم الشروط التى ينبغى أن تتوفر فى طلب العلم تلك الشروط التى

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢.

(٢) سورة الأنفال الآية ٢٩.

سردها الإمام فى بيتيه:

أخـى لـن تنـال العلـم إلا بستةٍ ... سأنبيـك عـن تفصيلها ببيان
ذكاء وحرص واجتهاد وبُلغة[1] ... وصحبـة أستـاذ وطـول زمان

ونشرحها فيما يلى تيسيرا لكل طالب علم:

١ - **الذكاء:** وذلك الذكاء يندرج فى أمرين أولهما: التركيز الشديد فى الحفظ، وينبغى أن يكون الحفظ بعد الفهم والتدقيق بكثرة السؤال للشيخ المعلم حيث يُفتح للمتعلم بين يدى معلمه ما لا يفتح له بدونه، كما يبقى له النور بمقدار ما بقى فى متابعة معلمه، وتأدبه معه واقتدائه به.

ثانيهمـا: مطالعة كتب المصنفين والعلماء والفقهاء ليفهم مقاصد العلم المطلـوب وكما قيل: «كان العلم فى صـدور الرجال ثم انتقل إلى الكتب ومفاتحه بأيدى الرجال». وشرط ذلك أن يتحرى كتب المتقدمين من أهل العلم المراد فإنهم أفهم له من غيرهم من المتأخرين، فأعمال المتقدمين فى إصلاح دينهم ودنياهـم على خلاف أعمال المتأخرين، وتحقق الصحابة بعلوم الشريعة ليس كتحقق التابعين، والتابعون ليسوا كتابعيهم، وهكذا إلى الآن، وهـذا يؤكده الحديث: «خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» [أخرجه البخارى ومسلم].

فعلـى طالب العلـم أن يطلبه من أهله المتحققين به وليصبر على ذلك ولا يتعجل، وليبحث عن العلماء ويجلس بين أيديهم ويأخذ من هديهم

(١) بلغة: ما يُتبلغ به من العيش ولا يفضل، ويعنى هنا: الكفاف والانشـغال بطلب العلم وليس بجمع المال الزائد عن الحاجة.

وسمتهم وأدبهم ويلزمهم السنين الطوال فطول الملازمة مهم ونافع، وليرحل إن استطاع إليهم..

أولئك الناس إن عُدوا وإن ذُكروا ومن سواهم فلغوٌ غير معدود

وليحفظ طالب العلم علمه كتابة فيقيد الفوائد والفرائد والأبحاث المنثورة في غير مظانها ثم ينقل كل ذلك في مذكرة؛ مرتبا له على الموضوعات مقيدا رأس المسألة واسم الكتاب ورقم الصفحة والمجلد، وللعلماء مؤلفات عدة في هذا منها: بدائع الفوائد لابن القيّم، وخبايا الزوايا للزركشي، وغيرها.

٢ - **الحرص:** هو التحلي بالثبات، والتثبت لاسيما في الملمات والمهمات ومنه الصبر والثبات في التلقي وطي الساعات في الطلب على الأشياخ فإن «من ثبت نبت» وليتحل بالتأمل فإن «من تأمل أدرك» وقيل: «تأمل تدرك»، وعليه فتأمل عند التكلم بماذا تتكلم وما هي عائدته.

وتحرز في العبارة والأداء دون تعنت أو تحذلق، وتأمل عند المذاكرة كيف تختار القالب المناسب للمعنى المراد، وتأمل عند سؤال السائل كيف تتفهم السؤال على وجهه حتى لا يحتمل وجهين، وهكذا.

وليحرص على العلم بحفظه ووعيه والتحرز من نسيانه بكثرة الحفظ والمراجعة والتحقق الكامل من الفهم الصحيح.

كما يحرص على وقته (وليكن حلف عمل لا حلف بطالة وبطر) فالحفاظ على الوقت بالجد والاجتهاد وملازمة الطلب والأشياخ والاشتغال بالعلم والقراءة والمطالعة والتدبر والحفظ والبحث لاسيما في

أوقات شـرخ الشـباب ومقتبل العمر ومعدن العافية فليغتنم هذه الفرصة الغالية لينال رتب العلم العالية فإنها: «وقت جمع القلب واجتماع الفكر» لقلة الشواغل والصوارف من التزامات الحياة ولخفة الظهر والعيال:

مع الثمانين عاث الضعف في جسدى وساءنى ضعف رجلى واضطراب يدى
إذا كتبت فخطى خـط مضطـرب كخـط مـرتعش الكفين مـرتعـدِ
فقـل لمـن يتمنـى طـول مدتـه هـذى عـواقب طـول العمـر والمددِ

فـإن أعملت البِـدار فهذا شـاهد منك على أنك تحمـل «كبر الهمة فى العلم».

٣ - الاجتهاد: من سـجايا الإسلام التحلى بكبر الهمة فإنه يجلب لـك الخير غير المجذوذ، لترقى إلى درجات الكمال فيجرى فى عروقك دم الشـهامة والركض فى ميدان العلم والعمل متحليا بالفضائل باسـطا يديك إلى مهمات الأمور ثابت الجأش لا ترهبك المواقف...

كبر الهمة حلية ورثة الأنبياء.. فارسم لنفسك كبر الهمة، واجعل أمام عينيـك مقولة الإمام على كرم الله وجهه: «قيمة كل امرئ ما يحسـنه» وقـد قيل: ليس كلمة أحض على طلـب العلم منها فاحذر قول القائل: ما ترك الأول للآخر، وصوابه: كم ترك الأول للآخر، فعليك بالاستذكار والاستكثار من ميراث النبوة وابذل الوسع فى الطلب والتحصيل والتدقيق وتذكر قول القائل النابه:

لا لا يكون السرى[1] مثل الدنى لا، ولا ذو الذكـاء مثـل الغبى

قال الإمام النـووى: «ينبغى على المرء أن يكون حريصا على التعلم؛

(١) السرى: الشريف والجمع سَرَاة.

مواظبا عليه فى جميع أوقاته، ليلا ونهارا، وسفرا وحضَرا، ولا يُذهب من أوقاته شيئا فى غير العلم إلا بقدر الضرورة لأكل ونوم قدرا لابد له منه ونحوهما، كاستراحة يسيرة لإزالة الملل، وليس بعاقل من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوّتها».

٤ – **البُلغة:** المال فتنة، قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة فتنة، وفتنة أمتى المال» [أخرجه الترمذى]، وقال حسن صحيح غريب.

ونحن فى زمن الماديات وصراع الناس على الكماليات، وهموم الناس الدنيئة التى خربت قلوبهم وعلاقتهم بربهم فى زمن التعاسة.

قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدرهم والدينار» [أخرجه البخارى].

فى هذا الزمن الحرج يحتاج الإنسان إلى التخلص من ربقة المادية الطاغية، وذلك ببذل المال، قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، فهيا أخى طالب التربية لترب نفسك على الزهد فى الدنيا وعلى الاستخشان والرضا بالقليل.. ألاّ يكون للدنيا قيمة فى قلبك فهى لا تساوى عند الله جناح بعوضة فلا تفرح بإقبالها ولا تحزن على إدبارها، ولتستو عندك الحالتان؛ لأنك عبد للمعطى المانع، قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[2].

قيل للإمام أحمد: الرجل يملك ألف دينار ويكون زاهدا؟

قال: نعم، إذا لم يفرح إذا زادت ولم يحزن إذا نقصت.

---

(١) سورة الحشر الآية ٩.

(٢) سورة الحديد الآية ٢٣.

فالمحمود من سائر الأشياء المتوسط، فالمنفق كل ما يجد مبذر، والبخيل يخبئ المال ويمنع نفسه حظها، ومعلوم أن المال لا يراد لنفسه؛ بل للمصالح، فإذا بذر الإنسان فيه احتاج إلى بذل وجهه ودينه ومنة البخلاء عليه، وهذا لا يصلح، (ولأن يخلف الإنسان لعدوه، خير من أن يحتاج إلى صديقه).

فينبغي على طالب العلم أن يقتصد وقد ورد في الدعاء النبوي: «اللهم إني أسألك القصد في الغنى والفقر»، وقد قال ابن الجوزي رحمه الله: «رأيت خلقا كثيرا من العلماء تضيق عليهم الدنيا فيفزعون إلى مخالطة السلاطين لينالوا من أموالهم وهم يعلمون أن السلاطين لا يكادون يأخذون الدنيا من وجهها ولا يخرجونها في حقها، فإن أكثرهم إذا حصل له خراج ينبغي أن يصرف إلى المصالح وهبه لشاعر!

وربما غزا فأخذ ما ينبغي أن يقسَّم على الجيش فاصطفاه لنفسه!

هذا غير ما يجري من الظلم من المعاملات ! وقد رُئي رجل عالم يخرج من دار يحيى بن خالد البرمكي، فقال: أعوذ بالله من علم لا ينفع، ألم ير المنكرات ولا ينكر، ويتناول من طعامهم الذي لا يكاد يحصل إلا بظلم فينطمس قلبه ويحرم لذة المعاملة للحق سبحانه ثم لا يقدر له أن يهتدي به أحد.. فقد حبب إليه الدنيا ولا خير- والله - في سعة من الدنيا ضيقت طريق الآخرة.

وأنا أرى اليوم أقواما صابروا عطش الدنيا في هجير الشهوات زمان العمر حتى رووا يوم الموت من شراب الرضا، وبقيت أذكارهم تُروى فتروى صدأ القلوب وتجلو صداها..

هذا الإمام أحمد الحبيب إلى قلوب المؤمنين ربما يحتاج ولو أشار لأتته

العطايا من كل حدب وصوب ولكنه يقول:

عزيز علىّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن، ويحتاج فيخرج إلى اللُقاط[1] ولا يقبل عطاء السلطان.

وهذا إبراهيم الحربى يتغذى بالبقل ويرد على المعتصم ألف دينار.

وهذا بِشر الحافى يشكو الجوع فيقال له: يُصنع لك حساء من دقيق؟ فيقول: أخاف أن يقول الله لى: هذا الدقيق من أين لك؟

وهذا هو عين الورع، وبقيت والله أذكار القوم، وما كان الصبر إلا غفوة نـوم.. ومضت لذات المترخصين وبليت الأبـدان ووهن الدين.. فاصبر، الصـبر يا من وُفق ولا تغبطن من اتسـع له أمر الدنيا ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾[2]، ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[3].

ومتى ضجـرت النفس لقلة الصـبر فاتلُ عليها أخبـار الزهاد فإنها ترعوى وتستحى وتنكسر إن كانت لها همة أو فيها يقظة»[4].

وعلى طالب العلم التحلى بالقناعة والزهادة، وحقيقة الزهد:

(الزهد بالحرام والابتعاد عن حماه بالكف عن المشتبهات وعن التطلع إلى ما فى أيدى الناس) ويؤثر عن الإمام الشـافعى - رحمه الله تعالى - قوله: (لو أوصى إنسـان لأعقل الناس صَـرف إلى الزهاد) وعليه فليكن

---

(١) اللُقاط: واللُقاطة: ما التقط فى الأرض، والشىء التافه الملقى يأخذه من أراد، (ج) لقاط وهذه المقولة أو هذا الفعل أراه مستحيل الحدوث من الإمام أحمد.

(٢) سورة القصص الآية ٨٠.

(٣) سورة القصص الآية ٨٣.

(٤) صيد الخاطر.

معتدلا فى معاشــه بما لا يشــينه بحيث يصون نفسه ومن يعول ولا يرِد مواطن الذلة والهوْن.

قال الشــيخ محمد الأمين الشــنقيطى: «لقد جئت من شــنقيط ومعى كنــز، قلَّ أن يوجد عند أحد، وهــو القناعة ولو أردت المناصب لعرفت الطريــق إليها، ولكنى لا أوثر الدنيا علــى الآخرة، ولا أبذل العلم لنيل المآرب الدنيوية» فرحمه الله تعالى رحمة واسعة. آمين.

٥ – صحبة أستاذ: الأصل فى الطلب أن يكون بطريق التلقين والتلقى عن الأســاتذة والمشــافهة للأشياخ، وقد قيل: (من دخل فى العلم وحده خرج وحده) وقيل: من لا شــيخ له فالشيطان شيخه، أى من دخل فى طلــب العلم بلا شــيخ خرج منه بلا علم، إذ العلــم صنعة، وكل صنعة تحتاج إلى صانع فلابد إذا لتعلمها من معلمها الحاذق.

يوجــد فى الكتاب أشــياء تصد عن العلم – أحيانــا – وهى معدومة عند المعلم، وهى التصحيف العارض من اشتباه الحروف مع عدم اللفظ، والغلط بروغان البشــر، وقلة الخبرة بالإعراب، أو فســاد الموجود منه، ورداءة النقل، فهذه كلها معوقة عن العلم، وقد استراح المتعلم من تكلفها عند قراءته على المعلم...

قال الأوزاعى: كان هذا العلم كريما يتلاقاه الرجال بينهم، فلما دخل فى الكتب دخل فيه غير أهله.

ولابن خلدون مبحث نفيس فى هذا فى مقدمته، وقال بعضهم:

من لم يشافــه عالمـا بأصولــه فيقينه فى المشكلات ظنون

وكان أبو حيان ينشد:

يظن الغمر أن الكتب تهدى أخا فهم لإدراك العلوم
وما يدرى الجهول بأن فيها غوامض حيرت عقل الفهيم
إذا رُمت العلوم بغير شيخ ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى تصير أضل من «توما الحكيم»

وقد قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

فالعلماء هم العارفون بشرع الله المتفقهون فى دينه العاملون بعلمهم على هدى وبصيرة، أولو الحكمة، أئمة الدين، ورثة النبوة، حملوا العلم عن الأنبياء فى صدورهم، وانطبعت أعمالهم بما قر فى جنانهم.

هم رأس الجماعة التى أُمرنا بلزومها وحُذرنا من مفارقتها، هم أكثر الناس خوفا من الله وقد عملوا بما زادهم وجلا وخشية فلا يشترون بعلمهم شيئا من متاع الدنيا الفانى.

وعلى الطالب أن ينتبه لشيخه ويجمع نفسه ويتفاعل معه وليتق انصراف الذهن وفتوره، ولذا قال بعض الأدباء: نشاط القائل على قدر فهم المستمع. وقد قال قائل: حدث القوم ما رمقوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فَتْرة، فانزع.

وعلى الطالب ألا يأخذ علمه من مبتدع: رافضى أو خارجى أو مرجئ أو قدرى... فإنه لن يبلغ مبلغ الرجال؛ ولن يكون صحيح العقيدة فى الدين متين الاتصال بالله صحيح النظر يقفو الأثر، إلا بهجر المبتدعة وبدعهم.

٦- طول زمان: ينبغى لطالب العلم ألا يستكثر الأوقات التى يقضيها

(١) سورة الأنبياء الآية ٧.

فى طلبه للعلم بل عليه أن يصبر ليتثبت من علمه ولا يسوف فى اشتغاله ولا يؤخر تحصيل فائدة فللتأخير آفات وكفى أنه يضيع عليه من الفوائد ما يمكنه الإلمام بها لولا تقصيره وكسله، قال الربيع: لم أر الشافعى آكلا بنهار ولا نائما بليل؛ لاهتمامه بالتصنيف.

فينبغى أن يغتنم التحصيل فى وقت الفراغ والنشاط وحال الشباب وقوة البدن ونباهة الخاطر وقلة الشواغل قبل عوارض البطالة وارتفاع المنزلة، قال عمر رضى الله عنه: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقال الشافعى: تفقه قبل أن ترأس؛ فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه.

***

إنما يصلح للتعليم قوم قنعوا من دنياهم بأن يعيشوا على ضروريات الحياة، وفى حدود ضيقة من الرزق... ليس يصلح للتعليم من يطلبه للغنى والجاه، وليس يصلح له كذلك من سُدت فى وجوهه طرق الكسب الأخرى، ثم رأى أن باب التعليم وحده هو المفتوح أمامه فدخله مرغما، إنما يصلح للتعليم من كان يرى – بحكم طبيعته ومزاجه – أن لذة التعليم تفوق كل لذة، وأنه سعيد باحترافه التعليم، وأن ما يجده من لذة فى حرفته يعوض ما يجده من ضيق فى رزقه وضآلة فى جاهه، وإلا كانت حرفة التعليم عذابا، وكل درس يؤديه ألما يمتد بامتداد الدرس؛ وكل ساعات فراغه شكوى من الزمان أن رماه بحرفة التعليم[1]..

(١) فيض الخاطر: أحمد أمين ص ٢٩، مكتبة الآداب، القاهرة.

وفـي النهاية يقرر الشـافعي فـي بيتين طريفين أن المعاصي سـبب لصعوبة التعلم وتعسره فيقول:

شكوتُ إلى وكيع[1] سوء حفظي ... فـأرشدنـي إلى تـرك المعاصـي
وأخبرنـي بـأن العلـم نـور ... ونـور الله لا يُهـدى لعاصـي

وما كان ذنب الشـافعي ومعصيته إلا إنه تناول عشاءه فأثقل فنام عن ورده... ألا فليفهم كل لبيب، وكل لبيب بالإشارة يفهم!

حب الصحابة وآل البيت والصالحين

شهـدت بـأن الله لا رب غيـره ... وأشهـد أن البعث حـقٌ وأخلـصُ
وأن عـرى الإيمـان قـول مُبيَّـن ... وفعـل زكـيٌ قـد يزيد وينقـص
وأن أبـا بكـر خليفـة ربـه ... وكان أبو حفص[2] على الخير يحرص
وأشهـد ربـي أن عثمـان فاضـلٌ ... وأنّ عليـا فضلُـه متخصـص
أئمـة قـومٍ يُهتـدى بهداهُـمُ ... لَحـى اللهُ[3] مـن إياهُـمُ يتنقَّصُ[4]

* * *

يا راكبا قـف بالمحصَّب مـن مِنىً ... واهتف بقاعد خَيْفها[5] والناهض[6]

(١) وكيع: معلم الشافعي.
(٢) أبو حفص: عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
(٣) لحى الله: قبح الله.
(٤) يتنقص: ينتقص ويقلل من قدرهم.
(٥) قاعد خيفها: ساكن الخيف؛ وهو مكان بالحجاز.
(٦) الناهض: مكان بالحجاز.

سحـرا إذا فاض الحجيـج إلـى منى فيضاً كملتطم[1] الفـرات الفائـض
إن كان رفـضـا حـبُ آل محمـــدٍ فليشهد الثقلانِ[2] أنـى رافضـيِ[3]

* * *

أحب الـصالحين ولست منهم لعلـى أن أنـال بهـم شفـاعة
وأكره مـن تجارتـه المعاصـي ولـو كنـا سـواء فى البضاعة

* * *

لقـد زان البـلاد ومـن عليهـا إمـام المسلميـن أبـو حنيفة
بأحكـام وآثـار وفقـه كآيات الزبور على الصحيفة
فما بالمشرقين لـه نظيـرٌ ولا بالمغـربيـن ولا بكوفة
فرحمـة ربنـا أبـدا عليه مدى الأيام ما قرئت صحيفة

* * *

يا آل بيت رسـول الله حبكـم فرض من الله فى القرآن أنزلـه
يكفيكم من عـظيم الفخر أنكمُ من لم يصل عليكم لا صلاة لـه

* * *

---

(١) كملتطم: كتلاطم أمواج الفرات وهو فائض.

(٢) الثقلان: الجن والإنس.

(٣) رافضى: الرافضية أو الروافض فرقة من غلاة الشيعة تسمى بذلك لرفضهم نُصرة أئمتهم وعـدم متابعتهـم، وغدرهم بهم، وقيل لرفضهم زيد بن على بن الحسـين لثنائه على عمر وأبى بكر – رضى الله عنهما – فقال زيد: رفضونا اليوم. ويسـمون أيضا (بالاثنى عشـر) لاعتقادهم بإمامة الاثنى عشر إماما نصا ويقينا وهو اعتقاد خاطئ. ويسمون الجَعفرية؛ لأن مذهبهم فى الفقه مذهب الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه.

إذا فى مجلسٍ نذكر عَلِيا وسبطيه[1] وفاطمة الزكية[2]
يقال تجاوزوا يا قومُ هذا فهذا من حديث الرافضية
برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفضَ حب الفاطميّة[3]

* * *

شرح الأبيات

قال أبو سعيد الخدرى وجماعة من التابعين منهم مجاهد وقتادة: آل البيت هم على وفاطمة والحسن والحسين وذرياتهم وما تناسل منهم.

وقال زيد بن الأرقم: الذين تحرم عليهم الصدقة بعد النبى ﷺ وهم: آل على وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس لحديث الرسول ﷺ: «أنشدكم الله فى أهل بيتى» قالها ثلاثا، وفسر زيد رضى الله عنه أهل بيته، بآل على وآل جعفر وآل عقيل وآل العباس والراوى أعلم بما يرويه.

وقد اختلف المفسرون فى تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[4] فمنهم من يقول: إن أهل البيت لفظ يُطلق على (على كرم الله وجهه وفاطمة الزهراء وأبنائهما ونسلهما)، ومنهم من يرى أنه لفظ يطلق على أسرة النبى ﷺ تمييزا لهم عن المهاجرين والأنصار.

ومنهم من يقول: إنه لفظ يتسع من وجوه شتى ليشمل فروع بنى هاشم وما لهم من موالٍ.

(١) سبطية: السِبط ولد الولد والجمع أسباط.

(٢) الزكية: الطاهرة النقية.

(٣) الفاطمية: كل من انتسب للسيدة فاطمة الزهراء بالنسب أو الحب.

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

وعند أهل السنة: لا يقتصر معنى أهل البيت على بنى هاشم بمعنى ضيق أو واسع؛ بل يعتبر أهل البيت كل أزواج النبى ﷺ وأبنائه وكذلك عليا زوج ابنته الزهراء.

وأهل البيت مدرسة مضيئة ونجوم متألقة فى سماء الإسلام العظيم فهم القدوة الشامخة التى اقتدت بالرسول ﷺ نهلوا من علمه ونشأوا فى بيته وساروا على نهجه؛ يدعون إلى كتاب الله والاعتصام بسنة نبيه ﷺ ويضربون فى سلوكهم الأمثال السامية للأمة.

يقول الرسول ﷺ: «النجوم أمان أهل السماء فإذا ذهبت النجوم ذهب أهل السماء، وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فإذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض» [أخرجه أحمد فى المناقب].

وقد أوصانا النبى ﷺ بأهل البيت[1] فى أحاديث كثيرة نذكر منها:

- «أذكركم الله فى أهل بيتى» [رواه مسلم].
- «شفاعتى لأمتى مَن أحب أهل بيتى» [كنز العمال].
- «خيركم خيركم لأهلى من بعدى» أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبونى بحب الله وأحبوا أهل بيتى لحبى» [أخرجه الترمذى].

- وقال رسول الله ﷺ: «والله لا يدخل قلب رجل مسلم إيمان حتى يحبكم لله ولقرابتى».

---

(١) أهل البيت وآل البيت، ولا يُطلق لفظ آل البيت إلا على آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم.

وقد أخرج الديلمى عن على كرم الله وجهه قال رسول الله ﷺ: «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتى، والقاضى لهم الحوائج، والساعى لهم فى أمورهم عندما اضطروا إليه، والمحب لهم بقلبه ولسانه».

وأخرج الحاكم فى المستدرك، وقال صحيح الإسناد: روى أبو ذر أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن مثل أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح من ركبها فقد نجا ومن تخلف عنها هلك».

اللهم صل على محمد وعلى أهل البيت الأخيار الأطهار، واجعلنا نُحشر فى زمرتهم يارب العالمين.

ربط الشافعى الإيمان بالله بتكريم آل بيت رسوله ﷺ لإيمانه بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1].

وعقيدته واضحة فى الأبيات فهو يعتقد يقينا بوجوب محبة الله والإيمان به وحب رسوله ﷺ وآل بيته الكرام، ويقول لمن ينكر عليه حب على وفاطمة وذريتهما:

برئت إلى المهيمن من أناسٍ يرون الرفض حب الفاطمية

فرغم أنه لا ينتمى للروافض المتشيعة فإنه لا يمانع أن ينسبوه إليهم إذا كان ذلك بسبب حبه للفاطمية.

كما يعتقد الشافعى يقينا فى وجوب حب الصحابة وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فهم أفضل الخلق بعد

---

(١) سورة الشورى الآية ٢٣.

الأنبيـاء ونحن مطالبون بحـب الصحابة أجمعين لقوله ﷺ: «أصحابى كالنجـوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم» والمهاجـرون والأنصار أجمعون نحن مطالبون بحبهم وتقديرهم فقد وردت الآيات مثنية عليهم فى كتاب الله:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾[1].

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[2].

ثم يمدح الشـافعى الإمام أبا حنيفة وقد اسـتفاد مـن فقهه وتلامذته وعلى رأسهم محمد بن الحسن- كما سبق- فقد هيأ له ذلك الجمع بين فقه المدينة وفقه العراق أو بين فقه النقل وفقه العقل.

والإمام أبو حنيفة إمام عظيم فى الفقه والأحكام؛ يقول فيه الشافعى: «النـاس عيال فى الفقه على أبى حنيفـة»، وقال عبد الله ابن المبارك: «إن كان الأثـر قـد عُرف واحتيـج إلى الرأى فرأى مالك وسـفيان وأبى حنيفة، وأبو حنيفة أحسـنهم وأدقهم فطنة وأعوصهـم على الفقه وهو أفقه الثلاثة».

---

(١) سورة الحشر الآيتان ٨ - ٩.

(٢) سورة التوبة الآية ١٠٠.

وقال معمر بن راشد: ما أعرف رجلا يحسن أن يتكلم فى الفقه، أو يسعه أن يقيس ويشرح لمخلوق طريق النجاة فى الفقه أحسن معرفة من أبى حنيفة.

نكران الجميل

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيعُ
فى كل يوم يبتديك بنعمة ... منه وأنت لشكر ذاك مُضِيعُ

* * *

يقول عز من قائل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١).

ما أحوجنا ونحن فى غمرة انشغالنا بالحياة أن نسمو بأرواحنا فوق ماديتها الطاغية، ونعمر قلوبنا بالتقوى وحب الله، وأن نطهر نفوسنا بالطاعة لله، ومجاهدة النفس وهجر المعاصى وقهر لذات الدنيا الفانية، وطلب لذة الآخرة الباقية، وأن ندع هوى النفس واقتراف الذنوب وننشد رضوان الخالق ونبغى جنة الخلود.

إن تزكية النفوس ليست فحسب علما يكفى فيه الدراسة والبحث؛ ولكنها- بجانب ذلك- ممارسة وأخلاق وسلوك وعمل وتطبيق، ولقد وضح ذلك الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله- حين قال عن نفسه:

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.

«أقبلت بهمتى وعلمتُ أن الطريق إلى الله إنما يتم بعلم وعمل».

والخطوة الأولى للوصول إلى الله هى التوبة من الذنوب:

خـل الذنوب صغيرها وكبيرهـا فهـو التُقـى
واصنـع كمـاشٍ فـوق الشـوك يحذر ما يرى
لا تحقـرن صغيـرة إن الجبال من الحصى

يقول الإمام الغزالى: «إن التوبة من الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب، وعـلام الغيـوب مبدأ طريق السـالكين ورأس مال الفائزيـن وأول أقدام المريدين ومفتاح استقامة المائلين».

يا مدمن الذنب أما تستحى والله فـى الخلـوة ثـانيكـا
أغـرّك مـن ربـك إمهالـه وستـره طـول مساويكـا؟!

ولقد اشـترط العلماء لصحة التوبة ثلاثة شـروط إن فُقد منها شرط لم تصح التوبة هى:

١- الإقلاع عن المعصية فى الحال.

٢- الندم على المعصية والمخالفة.

٣- العزم على عدم العودة.

وإذا تعلقـت بآدمى (أى بحق شـخص) فأضـف إلى ذلك رد المظلمة إلى صاحبهـا، والتوبـة المسـتوفية لهذه الشـروط هى التوبـة النصوح الصادقة المشار إليها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾[1].

(١) سورة التحريم الآية ٨.

أيـا عبـدكـم يـراك الله عاصيـا ... حريصا على الدنيا وللموت ناسيا
أنسيت لـقـاء الله والقبـر والبلـى ... ويوما عبوسا تشيب فيه النواصيا
إذا المرء لم يل بس ثيابا من التُقـى ... تقلـب عريانـا ولـو كـان كاسيا
وخيـر خصـال المـرء طاعـة ربـه ... ولا خيـر فيمـن كـان لله عـاصيـا
ولـو كـانت الدنيـا تـدوم لأهلهـا ... لكـان رسـول الله حيـا وبـاقيـا
ولكنهـا تفنـى ويفنـى نعيمهـا ... وتبقـى المعاصى والذنوب كما هى

يتعجب الإمام الشـافعى من حال الإنسان الجاحد لحق ربه، الناسى لفروض دينه، التابع لعدوه الشـيطان فى كل صغيرة وكبيرة، ثم يدّعى بعد ذلك الاعوجاج- محبة ربه فيقول له الشافعى:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ... هذا محـالٌ فى القيـاس بديـعُ
لو كـان حبـك صادقـا لأطعتـه ... إن المحـب لمـن يحـب مطيـعُ

إن حـب الله والإيمان به يسـتوجب طاعته، وهـذه الطاعة والاتباع حقيقة قول الشهادتين: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

كيف يدعى المحبة من لا يطيع ولا يتبع هدى السـماء، إن المحبة تستلزم الطاعة، والطاعة دليل الإيمان الكامل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[2].

أمـا الذين يدعون المحبة وهم علـى عصيانهم، فيقال لهم: ﴿قَالَتِ

(١) سورة آل عمران الآية ٣١.
(٢) سورة الحجرات الآية ٣.

﴿ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾[1].

إن الإيمان قول باللسان وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، وبدون هذه الأركان الثلاثة لا يكتمل الإيمان لذا ورد فى الحديث: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» أى ليس مكتمل الإيمان حال تلبسه بهذه الكبيرة، وفى حديث آخر: «والله لا يؤمن من لا يأمن جارُه بوائقه»[2]: أى لا يؤمن إيمانا كاملا.

والإيمان هو الحياة، والأشقياء بكل معانى الشقاء هم المفلسون من نور الإيمان ومن رصيد الطاعة والتقوى، فهم أبدا فى تعاسة وغضب ومهانة وذلة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3].

لا يُسعد النفس ويزكيها ويطهرها ويفرحها ويذهب غمها وهمها وقلقها إلا الإيمان بالله رب العالمين، ولا طعم للحياة أصلا إلا بالإيمان، وبقدر إيمانك- قوة وضعفا، وحرارة وبرودة - تكون سعادتك وراحتك ومحبتك لله ورسوله ﷺ...

إن المعصية تجعل القلب مظلما كالليل البهيم إذا ادلهم فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة،

---

(١) سورة الحجرات الآيتان ١٤- ١٥.

(٢) بوائقه: شروره ومفاسده.

(٣) سورة طه الآية ١٢٤.

وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرة الإنسان حتى يقع فى البدع والضلالات والمهلكات وهو لا يشعر... كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ثم تقوى حتى تعلو الوجه وتصير سوادا فيه يراه كل أحد.

قال ابن عباس – رضى الله عنهما: «إن للحسنة ضياء فى الوجه ونورا فى القلب، وسعة فى الرزق، وقوة فى البدن، ومحبة فى قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادا فى الوجه، وظلمة فى القلب، ونقصا فى الرزق، وبغضا فى قلوب الخلق».

إن من علامات محبة العبد لله أن يغضب لمحارمه إذا انتهكها المنتهكون، ولحقوقه إذا تهاون بها المتهاونون، والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس دينا أعظمهم غيرة، قال رسول الله ﷺ: «إن الله يغار، وإن المؤمن يغار، وغيرة الله أن يأتى المؤمن ما حُرِّمَ عليه».

فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبة أخلى، وإن زعم أنه من المحبين. وإن علامات محبة الله تعالى أن يكون العبد مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يحبه هو فى ظاهره وباطنه فيجتنب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظبا على طاعة الله تعالى متقربا إليه بالنوافل.

شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا عصيان
فإذا ادعيت له المحبة مع ... خلافك ما يحب فأنت ذو بهتان

إلاّ أن العصيان لا ينافى أصل المحبة؛ إنما يضاد كمالها ويدل على ذلك حديث نعيمان أنه كان يؤتى به إلى رسول الله ﷺ فيحده إلى أن أتى به يوما فحدّه فلعنه رجل فقال: ما أكثر ما يؤتى به!

فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه؛ فإنه يحب الله ورسوله» [أخرجه البخارى].

فلم تخرجه المعصية عن المحبة وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

وسبب ذلك تجردها عن الإجلال والتعظيم، فإذا اقترنت المحبة بمهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهوده عز جلاله وعظيم سلطانه؛ انكسرت نفسه له وذلت لعظمته واستكانت لعزته وتصاغرت لجلاله.

فما عمر القلب شيء كالمحبة المقترنة بإجلال الله وتعظيمه.

والمحب الصادق عليه رقيب من محبوبه يرعى قلبه وجوارحه، وعلامة صدق المحبة شهود هذا الرقيب ودوامه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[1].

* * *

استغفار وتوبة

إن كنت تغدو فى الذنوب جليدا[2] وتخاف يوم المَعاد وعيدا
فلقد أتاك من المهيمن عفوُه وأفاض من نِعم عليك مزيدا
لا تيأسنْ من لُطفِ ربك فى الحشا فى بطن أمكَ مُضغة ووليدا
لو شاء أن تصلى جهنم خالدا ما كان ألهم قلبك التوحيدا

* * *

(١) سورة البقرة الآية ١٦٥.

(٢) جليدا: جامدا جريئا.

قلبـي بـرحمتـك اللهـم ذو أُنُـس ... في السر والجهر والإصباح والغَلَس[1]
وما تقلبتُ مـن نومـي وفي سِنتـي[2] ... إلا وذكْـرُك بيـن النفْـس والنفَـس
لقـد مـننت علـى قلبـي بمعرفـةٍ ... بـأنـك الله ذو الآلاء والقـدُس[3]
ولقـد أتيـت ذنـوبـا أنت تعلمهـا ... ولم تكـن فاضحـي فيها بفعل مُسي[4]
فامـنن علـيّ بذكـر الصالحـين ولا ... تجعل علـيّ إذا فـي الديـن مـن لَبَـس
وكـن معـي طـول دنيـاي وآخـرتـي ... ويـوم حشـرى بما أنزلت في عَبَس[5]

* * *

ولـما قسا قلبـي وضاقـت مذاهبـي[6] ... جعلـتُ الرجـا منـي لعفـوك سُلّمـا
تعاظمنـي ذنبـي فلمـا قرنتُـه ... بعفـوك ربـي كـان عفـوك أعظمـا
فمازلت ذا عفـوٍ عـن الـذنب لـم تـزل ... تجـود وتعفـو مِنـةً وتكرمـا
فلـولاك لـم يَصمـد لإبليـس عابـد ... فكيـف وقـد أغـوى صفيـك[7] آدما
فللـه در العـارفِ النـدب إنـه ... تفيـض لفـرط الوَجْـد[8] أجفانُه دما
يقيـم إذا مـا الليـل مـد ظلامـه ... على نفسه مـن شـدة الخـوف مأتمـا

---

(١) الغَلَس: ظلام آخر الليل.
(٢) سِنة: نعاس وغفوة.
(٣) القدُس: الطُهْر.
(٤) مسى: سيئ.
(٥) عبس: سورة عَبَسَ
(٦) مذاهبي: طرقي وسبلي.
(٧) صفيك: من اصطفيته أي اخترته.
(٨) الوَجْد: الحزن.

فصيحـــا إذا مـا كـان فى ذكـر ربـه ... وفـى مـا سواه فى الورى[1] كان أعجما
ويذكـر أيامـــا مضـت مـن شبابـه ... ومـا كـان فيهـا بالجهالـة أجرمـا
فصـار قريـــن الهـم طـول نهـاره ... أخا السُهد[2] والنجوى[3] إذا الليل أظلما
يقـول حبيبـى أنت سؤلـى وبغيتـى ... كفـى بـك للراجيـن سؤلاً ومغنمـا
ألسـت الـذى غـذيتنـى وهديتنـى ... ولازلـتَ منـانـا علـىّ ومنعمـا
عسـى مـن لـه الإحسانُ يغفر زلتـى ... ويستـر أوزارى ومـا قـد تقدمـا

* * *

شرح الأبيات

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[4].

﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[5].

وعن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال قال رسـول الله ﷺ: «من شـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له وأن محمدا عبده ورسـوله، وأن عيسـى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» [متفق عليه].

وعـن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسـول الله ﷺ: «لمّا خلق

---

(١) الورى: الخلْق.

(٢) السهد: الأرق.

(٣) النجوى: مناجاة الله سرا، والتضرع إليه.

(٤) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٥) سورة الأعراف الآية ١٥٦.

الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش: «إن رحمتى سبقت غضبى» [متفق عليه]، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[1].

وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «جعل الله الرحمة مائة جزء، فأمسك عنده تسعة وتسعين، وأنزل فى الأرض جزءا واحدا، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه» [متفق عليه].

وعن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة رفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا فيقول: هذا فكاكك من النار» وفى رواية عن النبى ﷺ قال: «يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم» [رواه مسلم].

يدنو الأجل فيبكى الشافعى ويتضرع إلى الله مولاه وهو على فراش الموت، راجيا ربه أن يعفو عنه معترفا بذنبه – وحسنات الأبرار سيئات المقربين– ويستغفر ويتوب... ومن خير الأدوية التى يتداوى بها العبد لإصلاح قلبه وأنفعها وأفضلها: الاستغفار.. إنه دواء نافع ومزيل قوى للذنوب، فكل ذنب وكل معصية تترك أثرا وسوادا على القلب فيأتى الاستغفار فيزيل الأثر ويصقل القلب، كما قال النبى ﷺ: «إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه فإن تاب ونزع[2] واستغفر صقل قلبه، وإن زاد زادت حتى

(١) سورة الأنعام الآية ٥٤.

(٢) نزع: تركه وأقلع عنه «الذنب».

تعلو قلبه، ذاك الرين[1] الذى ذكره الله عز وجل فى القرآن: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، [رواه أحمد فى مسنده].

قال ابن القيم فى الفوائد ص: ٢٢٦:

«كان النبى ﷺ يقول فى خطبته: «الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا» [أخرجه أبو داود والترمذى].

وفى الحديث: من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا ومن كل ضيق مخرجا»، وسيد الاستغفار كما جاء فى الحديث: «اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبى، فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت» [أخرجه البخارى].

وفى الحديث الصحيح: أن رجلا أتى إلى النبى ﷺ فقال: «يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علىّ وأنا كبرت فأخبرنى بشىء أتشبث به، قال: «لا يزال لسانك رطبا بذكر الله». والذكر يشمل الاستغفار والتهليل والتكبير والتمجيد والحمد والصلاة على رسول الله ﷺ.

إن من أسباب راحة البال استغفار ذى الجلال، قال الشيطان: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوى بنى آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله تعالى: «فبعزتى وجلالى لا أبرح أغفر لهم ما استغفرونى» [رواه أحمد].

– أيها المذنب: إذا أحسست نفحات الجزاء فلا تكثرن الضجيج ولا تقول قد تبت وندمت فهلا زال عنى من الجزاء ما أكره! فلعل

(١) الرين: ران: غلب وغطى وطبع على القلوب، والرين: الغطاء والسواد.

(٢) سورة المطففين الآية ١٤.

توبتك ما تحققت، وإن للمجازاة زمانا - كما يقول ابن الجوزى- يمتد امتداد المرض الطويل، فلا تنجع فيه الحيل حتى ينقضى أوانه، وإن بين زمان ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ إلى إبان ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾[1] مدة مديدة.

فاصبر أيها الخاطئ حتى يتخلل ماء عينيك خلال ثوب القلب المتنجس فإذا عصرته كفُّ الأسى ثم تكررت دُفَعُ الغسلات حُكِم بالطهارة.

بقى آدم يبكى على زلله ثلاث مائة سنة.

ومكث أيوب - عليه السلام - فى بلائه ثمانى عشرة سنة.

وأقام يعقوب يبكى على يوسف - عليهما السلام - ثمانين سنة.

وللبلايا أوقات ثم تنصرم، ورُبَّ عقوبةٍ امتدت إلى زمن الموت فاللازم لك أن تلازم محراب الإنابة وتجلس جلسة المستجدى وتجعل طعامك القلق وشرابك البكاء فربما قدِم بشير القبول فارتد يعقوب الحزن بصيرا.

وإن مِتّ فى سجنك فربما ناب حزن الدنيا عن حزن الآخرة، وفى ذلك ربح عظيم.

والواجب على العاقل أن يحذر مغبة المعاصى فإن نارها تحت الرماد. ولا ماء يطفئ تلك النار إلا ما كان من عين العين؛ أيها النادم: قربت سفينة العمر من ساحل القبر.. ومالك فى المركب بضاعة تربح!!

رُوى عن كعب الأحبار رضى الله تعالى عنه أنه قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: «يا موسى آليتُ- أى حلفت- على نفسى قبل أن أخلق السماوات والأرض والدنيا والآخرة أنه من لقينى وهو يشهد أن

---

(١) جزء من الآية ١٢١ فى سورة طه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ وجزء من الآية ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فى سورة البقرة الآية ٣٧.

لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ صادقا من قلبه، كتبتُ له براءة وعتقاً من النار، وأوصيتُ ملك الموت عند قبض روحه أن يكون أرفق به من والديه، وأوصيتُ منكرا ونكيرا إذا دخلا عليه فى قبره ألاّ يروعاه، وأوسع له فى قبره وأؤنسه من وحشة قبره، ولا يسألنى يوم القيامة عن شىء إلا أعطيته إياه».

وفى خبر مسند: أن رجلا يؤمَر به إلى النار فإذا بلغ ثلثَ الطريق التفت، فإذا بلغ نصف الطريق التفت، فإذا بلغ ثلثى الطريق التفت، فيقول الله تعالى: ردوه، ثم يسأله فيقول: لم التفت؟- والله تعالى أعلم - فيقول: لما بلغت ثلث الطريق تذكرتُ قولك: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [1]، فقلت: لعلك تغفر لى.

فلما بلغت نصف الطريق تذكرت قولك: ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [2]، فقلت: لعلك تغفر لى، فلما بلغت ثلثى الطريق تذكرت قولك: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [3]، فازددت طمعا، فيقول الله عز وجل: اذهب فقد غفرتُ لك.

ثم يذكر الشافعى وهو بين يدى ربه وملك الموت ينتظر الأمر، يذكر منن ربه عليه فيقول بعين باكية:

(١) سورة الكهف الآية ٥٨.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٣٥.

(٣) سورة الزمر الآية ٥٣.

لقد مننتَ على قلبى بمعـرفةٍ بأنـك اللهُ ذو الآلاء والقُـدُس

وقوله:

ألست الذى غذيتنى وهديتنى ولازلـت منّانـا علـىّ ومنعما

وكأنــه يرنو إلى دعــاء إبراهيم إذ يســتجدى ربه الرحمــات مكتفياً بالتــوكل عليه مســتغنيا به عن الخلــق: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

ثم يُنهى نجواه بقول كريم عظيم فى فحواه ومعناه:

عسى من له الإحسان يغفر زلتى ويستـر أوزارى ومـا قـد تقـــدّما

وهذا مصداق قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾[2].

قــال عكرمة: الحســنى: الرحمة، وقال غيره: الســعادة، هم الذين ســبقت لهم من الله السعادة وأســلفوا الأعمال الصالحة فى الدنيا، كما قــال تعــالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[3]، وقــال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[4].

(١) سورة الشعراء الآيات ٧٧ – ٨٢.

(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠١.

(٣) سورة يونس الآية ٢٦.

(٤) سورة الرحمن الآية ٦٠.

فكما أحســنوا العمل فى الدنيا أحسن الله مآبهم وثوابهم ونجاهم من العذاب وحصل لهم جزيل الثواب، فأولئك عن النار مبعدون لا يسمعون حسيسها: أى صوت حياتها على الصراط فسلمهم من المحذور المرهوب، وحصل لهم المطلوب المحبوب.

* * *

خاتمة

رحلة ممتعة شـائقة نافعة سـرت فيها مع إمامنا الشـافعي وخضت فيهـا بحار فكره ومبادئه وأخلاقياته، كنت خلالها مبحرة على ضفاف ديوانه العظيم شارحة معظم أبياته شرحا مسلطا على أخلاقيات الشافعي ومبادئه ومثله لأكشـف عن جوهر ومعدن هذا الإنسـان النفيس ليستفيد من كلماته كل من يقرؤه مسـتندة فى هذا الشـرح إلى مراجع متنوعة فى التفسـير والحديث والتاريخ وكتب الأخلاق والسير، ووصايا الرسول ﷺ مع الرجوع للمعاجم اللغوية قدر الحاجة محاولة تبسـيط الشرح مع عدم الإخلال بأى معنى، مستنيرة بآيات الذكر الحكيم التى حفظها الشافعى وملأ بفحواها شـعره وسلك بها طريقه فى الحياة، فكان- رحمه الله - قدوة حية ما بقيت السـماوات والأرض، وإلى أن يجمع الله الناس ليوم لا ريب فيه..

هذا... فإن كنت قد أصبت وجوّدت وأتقنت فمن الله الرحيم الحنّان المنّان.. وإن كنت قد أخطأت أو سهوت فمن نفسى ومن الشيطان، والله أسـأل أن ينفعنى بما كتبت، و أن ينفـع بهذا الجهد المتواضع كل من سيطّلع عليه من قريب أو بعيد عاجلا أو آجلا،

والله من وراء القصد... أ.هـ

﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ (١)

صدق الله العظيم.

---

(١) سورة التوبة الآية ١٠٥.

المراجع

- ديوان الإمام الشافعي، تعليق محمد عفيف الزغبى، دار الجيل – بيروت.
- ديوان الإمام الشافعي، تعليق د/ إسماعيل العقباوى، دار الحرم – القاهرة.
- الوصايا لأبى عبد الله الحارث المحاسبى – دار الكتب العلمية – بيروت.
- مكاشفة القلوب لأبى حامد الغزالى– دار المنار بالقاهرة.
- الأنابيش: عبد الرحمن الضبع– مكتبة الإيمان بالمنصورة.
- صيد الخاطر لأبى الفرج بن الجوزى– مكتبة الكليات الأزهرية.
- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق لابن مسكويه – المطبعة المصرية – مصر.
- المستطرف فى كل فن مستظرف: شهاب الدين الإبشيهى – دار إحياء التراث العربى – لبنان.
- الأئمة الأربعة: أحمد الشرباصى – كتاب الهلال.
- الأم للشافعى، تحقيق وتعليق: د. محمد إبراهيم الحفناوى.
- الذريعة إلى مكارم الشريعة: الراغب الأصفهانى، تحقيق الدكتور/ أبواليزيد العجمى دار الوفاء – دار الصحوة.
- منهاج القاصدين لابن قدامة المقدسى: دار إحياء الكتب العلمية – القاهرة.

❑ وصايا الرسول ﷺ وأثرها فى تقويم الفرد: د. محمد بكر إسماعيل، دار المنار – القاهرة.
❑ منهاج الصالحين من أحاديث وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين: عز الدين بليق– دار الفتح للطباعة والنشر – بيروت.
❑ تفسير ابن كثير: مكتبة مصر – الفجالة.
❑ كونوا ربانيين: عائض بن عبد الله القرنى، دار ابن حزم– بيروت.
❑ الجواهر اللؤلؤية فى شرح الأربعين النووية لمحمد بن عبد الله الدمياطى دار اليمامة – بيروت.
❑ حلية طالب العلم: بكر بن عبد الله أبو زيد: دار الراية– الرياض.
❑ منطلقات طالب العلم: محمد حسين يعقوب، المكتبة الإسلامية– القاهرة.
❑ فيض الخاطر: أحمد أمين– مكتبة الآداب– القاهرة.
❑ أهل البيت وأحفاد النبى: هشام خضر، مكتبة النافذة– القاهرة.
❑ فى ظلال المحبة: عبد الهادى حسن وهبى، دار ابن عفان– السعودية.
❑ الطريق إلى الله: مملكة المحبين ومستراح العابدين: أحمد عبد الفتاح طِلب، دار الندوة العالمية.
❑ المعاصى الجثام وآثارها على ذوى الأفهام: أم أحمد عبد الخالق النبراوى – دار ابن الخطاب – المحلة الكبرى.
❑ الذنوب وقبح آثارها: محمد بن أحمد سيد أحمد، هدية من مجلة التوحيد.
❑ من وصايا الرسول: طه عبد الله العفيفى، دار الاعتصام، القاهرة.

الكاتبة فى سطور (سيرة ذاتية)

- سمية عبد الحليم عويس من مواليد ١٣/ ١/ ١٩٧٢م- الكويت.
- تخرجت فى كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة عين شمس بالقاهرة.
- عضو رابطة الأدب الإسلامى، وكاتبة فى مركز الإعلام العربى بالقاهرة.
- **مؤلفاتها التى صدرت:**

١ - لقاء النفوس: دار البشير - القاهرة.

٢ - فى القفص الذهبى.

٣ - أمهات المؤمنين: دار العبيكان بالسعودية.

٤ - العشرة المبشرون بالجنة: دار العبيكان بالسعودية.

٥ - هكذا عرفت الله (رواية) دار الكلمة - القاهرة.

٦ - صُراخ الصمت (مجموعة قصصية) دار الكلمة- القاهرة.

٧ - فى أودية الحرمان (مجموعة قصصية).

٨ - الجنة الموعودة (مجموعة قصصية) دار بوب بروفيشنال - القاهرة.

٩ - قلوب ظامئة (مجموعة قصصية).

١٠ - غريب فى المدينة (مجموعة قصصية).

١١ - د/ مصطفى محمود.. مفكر حائر وفيلسوف يباشر الحياة. دار بوب بروفيشنال - القاهرة.

١٢ – بين يدى ملك الموت – تحت الطبع.

١٣ – قضايا حضارية – تحت الطبع.

١٤ – عالم البنات – مركز الإعلام العربى.

١٥ – أطواق النجاة.

١٦ – حديث العقول – تحت الطبع.

١٧ – تأملات فى النفس والناس والحياة – تحت الطبع.

١٨ – فى أروقة النساء (مجموعة قصصية) تحت الطبع.

كما فازت الكاتبة ببحث بعنوان «العالم الإسلامى والغرب.. حوار متبادل» فى مؤتمر عن كليات بديع الزمان سعيد النورسى بتركيا.. عام ٢٠٠٥م وشاركت ببعض البحوث التابعة «لأدب ياهو» دار سوزلر للنشر – تركيا – القاهرة.